سبيل المبتدئين

في شرح البدايات من منازل السائرين

١

لفضيلة الإمام العلامة
نور الدين
علي جمعة
مفتي الديار المصرية

الوابل الصيب للإنتاج والتوزيع والنشر

سبيل المبتدئين

في شرح البدايا من منازل السائرين

لفضيلة الإمام العلامة

نور الدين

عليّ جمعة

مفتي الديار المصرية

الوابل الصيب للإنتاج والتوزيع والنشر

تراثنا ــــ أمانة في أعناقنا

بسم الله الرحمن الرحيم

أنه مُخِلّ بالبلاغة، وعسير في الفهم، ومنها أنه مُخِلّ بالتحصيل، وضياع وقت كبير في تمعن ألفاظ هذه المختصرات؛ لتزاحم معانيها، ثم هي تؤدي -إذا جاءت علىٰ وجهها- إلىٰ نقص في الْمَلَكَةِ وضعفٍ؛ فالْمَلَكَة الحاصلة من التعليم في تلك المختصرات، إذا تم علىٰ سداده، ولم تعقبهُ آفة: فهي ملكة قاصرة؛ وأن المختصرين قصدوا إلىٰ تسهيل الحفظ علىٰ المتعلمين، فأركبوهم صعبًا يقطعهم عن تحصيل الملكات النافعة وتمكُّنِها[1].

إلا أننا نرىٰ في رأي ابن خلدون اتجاهًا تربويًا يمكن تَعقّبه، بأنه حصر الفائدة من المختصرات علىٰ كونها تدرس علىٰ الناشئة وصغار المتعلمين، ولو أننا ألقيناها عليهم بعد استوائهم علىٰ سوقهم وتمكّنِهم من استحضار حكمٍ حاضرٍ أو حاجةٍ ملحةٍ، لأضحت المختصرات مقربةً للعلم، غيرَ مضيعةٍ للوقتِ، ولو أنه اقتصر بما ينتج عنها في تعليمها للناشئة وصغار المتعلمين في طور التكوين، لأخرجنا طائفة أخرىٰ هي الأكثر وجودًا وأعظم أثرًا ينتفعون منها.

غير أن هذا الاتجاه المناهض للمختصرات عند ابن خلدون الذي نرىٰ أنه محصور في جانب تربوي، نرىٰ أنه أكثر شمولًا من الاقتصار علىٰ جانب واحد عند عَلَم من أعلام التجديد في الفكر هو الإمام الشَّاطِبِيَ (٧٩٢هـ)، الذي ينقل عنه الحجوي (١٣٧٦هـ) قوله: «إن ابن بشير وابن شَاس وابن الحاجب[2] أفسدوا الفقه»[3].

وأخيرًا فالذهبي يعُدّه طورًا تاليًا لمرحلة الاجتهاد، فهو إذًا مرحلة نازلة، فيقول:

---

(١) انظر: مقدمة ابن خلدون: ٣٤٢/١. باختصار وتصرف.

(٢) أحد أصحاب المختصرات في فقه المالكية، أكمله في سنة ٥٢٦هـ. ولم أقف على تاريخ وفاته. انظر: الديباج المذهب: ٨٧/١. وابن شاس صاحب «عقد الجواهر الثمينة» في الفقه المالكي، قال فيه الذهبي: «وكِتَابه المَذْكُور وَضَعه عَلَىٰ تَرْتِيب (الوجيز) لِلْغَزَالِيّ». انظر: سير أعلام النبلاء: ٩٨/٢٢، والديباج المذهب: ١٤١/١. وابن الحاجب صاحب «جامع الأمهات» في الفقه المالكي، وهو من أهم مختصرات المالكية وشغف به كثير من العلماء، حتى إن ابن دَقِيق العِيْد -وهو شافعي المذهب- تصَدّىٰ لشرحه. انظر: سير أعلام النبلاء: ٢٦٤/٢٣، والديباج المذهب: ١٨٩/١.

(٣) انظر الفكر السامي، للحجوي: ٨١/٤.

«ثم من بعد هذا النمط -مرحلة الاجتهاد- تناقص الاجتهاد ووضعت المختصرات وأخلد الفقهاء إلىٰ التقليد»(١).

ويقول ابن القيم ناقدًا طريقة المتأخرين المقتصرين علىٰ المختصرات: «فَلَمَّا طَالَ الْعَهْدُ وبَعُدَ النَّاسُ مِنْ نُورِ النُّبُوَّةِ صَارَ هَذَا عَيْبًا عِنْدَ الْمُتَأَخِّرِينَ أَنْ يَذْكُرُوا فِي أُصُولِ دِينِهِمْ وَفُرُوعِهِ قَالَ اللهُ، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ... وأَمَّا فُرُوعُهُمْ فَقَنَعُوا بِتَقْلِيدِ مَنِ اخْتَصَرَ لَهُمْ بَعْضَ الْمُخْتَصَرَاتِ الَّتِي لَا يُذْكَرُ فِيهَا نَصٌّ عَنِ اللهِ ولَا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ولَا عَنِ الْإِمَامِ الَّذِي زَعَمُوا أَنَّهُمْ قَلَّدُوهُ دِينَهُمْ... وأَجَلُّهُمْ عِنْدَ نَفْسِهِ وزَعِيمُهُمْ عِنْدَ بَنِي جِنْسِهِ مَنْ يَسْتَحْضِرُ لَفْظَ الْكِتَابِ، ويَقُولُ: هَكَذَا قَالَ، وهَذَا لَفْظُهُ»(٢).

وبهذا ينجلي لنا موقف بعض الذين وقفوا من ظاهرة المختصرات بأنها تنحصر في كونها: إما أنها تؤثر علىٰ مَلَكَة المتعلم، أو تعطّل حركة التجديد، أو تخالف طريقة السلف.

وحديثًا يأتي الحجوي رَحِمَهُ اللَّهُ ليؤكِّد المعنىٰ، ويسوقه صراحة دون مواربة فيقول: والاختصار لا يسلم صاحبه من آفة الإفساد والتحريف(٣) والرزية كل الرزية في الاشتغال بالمختصرات، فالاختصار والتّوسّع في جمع الفروع من غير التفات للأدلة هو الذي أوجب الكهولة، بل القرب من الشيخوخة(٤).

وبهذا نكون قد وقفنا علىٰ آراء بعض من نقد الظاهرة، واعتبرها طورًا من أطوار الكهولة والشيب الذي ينتج عنه الذبول والانمحاء.

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء: ٩١/٨.
(٢) انظر: إعلام الموقعين: ١٧٠/٤، وكلام ابن القيم هنا يصدق علىٰ علم الفقه ولا يتعدىٰ إلى غيره.
(٣) انظر: الفكر السامي، للحجوي: ١٥٤/٣.
(٤) السابق: ٨١/٤.

القسم الثاني (المؤيد للظاهرة):

وإذا عرّجْنا علىٰ رأي المؤيدين للاختصار فإن النووي (٦٧٦هـ) يقتصد في شرحه ويعلل كيف وصل الحال إلىٰ طور الاختصار فيقول: «ولولا ضعف الهمم وقلة الراغبين وخوف عدم انتشار الكتاب لقلة الطالبين للمطولات لبسطته فبلغت به ما يزيد علىٰ مائة من المجلدات»[1].

أمّا ابن حجر (٨٥٢هـ) فلا يجد مانعًا من الاختصار، وقد قال: «وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُون مَحَلّ الْكَرَاهَة لِلْعَالِمِ إِذَا شَغَلَهُ ذَلِكَ عَمَّا هُوَ أَعَمّ مِنْهُ، وكَانَ يَنْبَغِي تَلْخِيص مَا يَكْثُر وُقُوعه مُجَرَّدًا عَمَّا يَنْدُر، ولَا سِيَّمَا فِي الْمُخْتَصَرَات لِيَسْهُل تَنَاوُله»[2].

ورأىٰ المناوي (١٠٣١هـ) أن الأمر يتوقف علىٰ الحاجة المُلِحَّة وأنّه بين الإفراط والتفريط، والعدل هو التوسط، ثم ساق ما سقناه عن ابن حجر[3].

ولسنا نحاول أن نستقصي الموضوع من أساسه، وإنما نرىٰ من جانبنا أن أصحاب الاتجاهات التجديدية أو المتأثرين بها، هم دعاة نبذ الاختصار، والرجوع إلىٰ ما سطّره الأقدمون، فإنه مُعِين علىٰ تهذيب الْمَلَكَة، وأبعد عن غلظ الطبع الذي قد ينشأ من استظهار المختصرات والاكتفاء بها عن غيرها.

كما نودُّ أن نؤكِّد أن الاختصار قد تحوّل عن غاية ما وضع له، وانصرفَ المعلّمون إلىٰ الاقتصار عليه وتلقينه لصغار المتعلمين، وتلك غاية لم يقصدها المختصرون.

وأقول: إن الاختصار كظاهرة لها دور قد أدته في بلوغ الفن المختصَر فيه طورًا كان لابد من بلوغه، ثم تأتي العادات المتحكّمة علىٰ عقول العامة، والسلطات

---

(١) انظر: شرح النووي: ١/٤.

(٢) انظر: فتح الباري: ١٣/٢٦٣.

(٣) انظر: فيض القدير، للمناوي: ٣/٥٦٢.

المتسلطة علىٰ ثقافتهم لتحدّ من التجديد، وتجعل كل مجدد يضرب في حديد بارد؛ مما يصرف كثيرًا من أهل الفهم علىٰ الاقتصار علىٰ أفكار المتقدمين وتحصيلهم ليدوروا في فلكه، وهي الطامة التي أودت بالعلوم، وجعلها تتأخر عن مسايرة مستجدّات الحياة فاتسع الخرق علىٰ الراقع، وأصبح الاختصار يحتاج إلىٰ البسط والشرح، والشرح يحتاج إلىٰ التحشية، والتحشية تحتاج إلىٰ استدراك، فعدنا إلىٰ أصل ما فررنا منه.

كما نرىٰ من جانبنا أن المختصرات وإن خالفت طريقة السلف -وهذا أشد ما تتهم به- إلا أنّها لم تصادف مجتمعًا كمجتمع السلف، ولم تصادف ملكاتٍ كملكات أبنائهم، بل كانت طورًا تتطلبه حركة المجتمع، وعنصرًا مهمًا يسدّ ثغرة الفتور.

ونؤكد أيضًا أن الاختصار والتلخيص مهمة لا يضطلع بها إلا الأفذاذ المجيدون، الذين يملكون لا حظًا من العربية فقط بل يملكون ناصيتها، فضلًا عن تملّكهم ناصية العلم المختَصر فيه في جانبيه الأصولي والفرعي، فضلًا عن مَلَكَات قد لا تتوافر في كلّ زمن إلا في قلائل يقدم واحد منهم علىٰ الاختصار.

وأن المختصَر لا يُعدّ صالحًا إلاّ إذا سبك بلغة الزمن، فتتبدىٰ قدرة المختصِر علىٰ حشد المعاني المتزاحمة في كلمات موجزة، توافق كل مطّلعٍ يأتي بعد، يستخلص ذلك من عددٍ وافرٍ من كتب الفن هي عماده وعليها بناؤه.

فنحن إذًا مع الدور الإيجابي للظاهرة، ومن هذا المنطلق، حرصنا علىٰ شرح هذا الكتاب الذي نزفه اليوم لقرائنا ومحبينا، عسىٰ الله أن ينفع به قارئه ودارسه والدال عليه، وأن يجعله شاهدًا لنا لا علينا، وأن يتقبله خالصًا لوجهه الكريم. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

ترجمة مختصرة
لصاحب كتاب منازل السائرين رضي الله عنه

اسمه وكنيته:

هو: عَبْد الله بن مُحَمَّد بن عَلِيّ بن مُحَمَّد بنِ أَحْمَد بن عَلِيّ بنِ جَعْفَر بن مَنْصُوْر، الأَنْصارِيّ، الهَرَوِيّ، الْحَنْبَلِيّ، مِنْ ذُرِّيَّةِ صَاحِب النَّبِيّ ﷺ أَبِي أَيُّوْب الأَنْصارِيّ، يكنى بأبي إسماعيل.

ألقابه:

أُطْلِق على الشيخ ألقابٌ، منها: شيخ الإسلام، وناصر السنة، وخطيب العجم.

مولده ونشأته:

ولد رحمه الله في يوم الجمعة من شهر شعبان سنة ست وتسعين وثلاثمائة، في مدينة (هَرَاة) وهي إحدى ولايات أفغانستان، قرب الحدود الأفغانية الإيرانية.

نشأ رحمه الله منذ الصغر محبًا للعلم والعلماء، وكان أبوه من الصلاح والتقوى وحُسْن الرعاية ما كان له الأثر البارز في حياته، فحفظ القرآن الكريم وتعلم التفسير، وما إن بلغ الإمام سن الرابعة عشر حتى ذاع صيته وانتشر بين الناس؛ ومع ذلك ما تخلى عن الطلب فتعلم اللغة والحديث والفقه والكثير من العلوم الشرعية.

رحلته في طلب العلم:

رحل رحمه الله في طلب العلم والإسناد رحلات كثيرة، ففي عام ٤١٧هـ كانت رحلته إلى نيسابور طلبًا للفقه والحديث، ثم رافق الإمام أبا الفضل بن سعد الزاهد

-خال شيخ الإسلام أبي عثمان الصابوني- في رحلته للحج، سمع الحديث بهراة من يحيىٰ بن عمَّار السِّجْزِيّ، وأخذ منه علم التفسير، وأَبِي مَنْصُوْر الأَزْدِيّ، وأبي الفضل الجَارُوْدِيّ الحافظ، وأخذ منه علم الحديث، وشعيب البُوْشَنْجِيّ وغيرهم. وبنيسابور من أبي سعيد الصَّيْرَفِيّ، وأبي نصر المفسر المقرئ، وأبي الحسن الطِّرَازِيّ، وجماعة من أصحاب الأصم. ورأىٰ القاضي أبا بكر الحِيْرِيّ، وحضر مجلسه، ولم يسمع منه. وكان يقول: تركتُه لله.

وسمع ببغداد من أبي مُحَمَّد الخلاَّل، وسمع بطوس وبسطام، من خلق يطول ذكرهم. وصحب الشيوخ، وتأدّب بهم. وخرج الأمالي والفوائد الكثيرة لنفسه ولغيره من شيوخ الرواة. وأملىٰ الحديث سنين.

شيوخه:

ذكر له المترجمون عددًا كبيرًا من الشيوخ، فمنهم: عَبْد الجَبَّار الجَرَّاحِيّ سمع منه «جامع الترمذي»؛ وسمع من: الحافظ أَبِي الفَضْلِ مُحَمَّد بن أَحْمَد الجَارُوْدِيّ، وَالقَاضِي أَبِي مَنْصُوْرٍ مُحَمَّدِ بن مُحَمَّدٍ الأَزْدِيّ، وأَحْمَد بن مُحَمَّد بنِ العَالِي، ويحيىٰ بن عمار السِّجْزِيّ، المفسر، وَمُحَمَّدِ بنِ جبرَائِيْلَ بن مَاحِي، وَأَبِي يَعْقُوْب القَرَّاب، وأبي ذر عبد بن أحمد الهَرَوِيّ، ومُحَمَّد بن مُوْسَىٰ الحَرَشِيّ، وَأَحْمَد بنِ مُحَمَّد السَّلِيْطِي، وَعَلِيّ بن مُحَمَّد الطِّرَازِيّ، الحنبليّ، من أصحاب الأصم، والحَافِظ وَأَحْمَدَ بنِ عَلِيّ بنِ مَنْجُوَيْه الأَصْبَهَانِيّ، وأحمد بن الحسين البَيْهَقِيّ، وأحمد بن أبي رافع، وإِسْحَاق بن إِبْرَاهِيْم الهَرَوِيّ، وغيرهم.

تلامذته:

أخذ عن الشيخ عدد كبير من التلاميذ الذين ساروا رؤوسًا في العلم بعده، فمنهم: المُؤْتَمَنُ السَّاجِيّ، وَمُحَمَّدُ بنُ طَاهِرٍ، وَعَبْدُ اللهِ بنُ أَحْمَدَ بنِ السَّمَرْقَنْدِيّ، وَعَبْدُ اللهِ بنُ عَطَاءٍ الإِبْرَاهِيْمِيُّ، وَعبدُ الصَّبور بن عَبْد السَّلاَم الهَرَوِيّ، وَأَبُو الفَتْحِ

عَبْدُ الْمَلِك الكَرُوخِيّ، وَحَنْبَلُ بنُ عَلِيّ البُخَارِيّ، وَأَبُو الفَضْل مُحَمَّدُ بنُ إسْمَاعِيْلَ الفَامِيّ، وَعبدُ الجَلِيْل بنُ أَبِي سَعْدٍ المُعَدَّل، وَأَبُو الوَقْتِ عبدُ الأَوّل السِّجْزِيّ، وحُسَيْن بن مُحَمَّد الكُتبِيّ.

مصنفاته رضي الله عنه:

ذكر المترجمون له عددًا من المصنفات منها: الأربعين في دلائل التوحيد، الأربعين في السنة، الأمالي وأنوار التحقيق في المواعظ، اعتقاد أهل السنة، تكفير الجهمية، الرسالة القدرية، طبقات الصوفية، مناقب الإمام أحمد، مناقب أهل الآثار، مجالس التذكير، ذم الكلام وأهله،

وهذا الكتاب الذي نقوم علىٰ شرحه وهو: (**منازل السائرين إلىٰ الحق المبين**).

ثناء العلماء عليه:

شهد له بالإمامة وأثنىٰ عليه شيوخه وأقرانه ومن دونه من الفقهاء والمحدّثين والشدّة في السنّة. وقال **ابن طاهر**: «سمعته وغيرهم؛ قال عنه **الزهاوي**: «وكان شيخ الإسلام مشهورًا في الآفاق بالحنبليّة يقول: أحفظ اثنىٰ عشر ألف حديث أسردها سردًا». وقال **السمعاني**: كان مُظهرًا للسنة داعيًا إليها محرضًا عليها. وقال **السِّجْزِيّ**: دَخَلْتُ نَيْسَابُوْر، وَحَضَرتُ عِنْد الأُسْتَاذِ أَبِي المَعَالِي الجُوَيْنِيّ، فَقَالَ: مَنْ أَنْتَ؟ قُلْتُ: خَادمُ الشَّيْخ أَبِي إِسْمَاعِيْلَ الأَنْصَارِيّ. فَقَالَ: رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَقَالَ **عبدُ الغَافِرِ بنُ إِسْمَاعِيْلَ**: كَانَ أَبُو إِسْمَاعِيْلَ الأَنْصَارِيُّ عَلَى حَظٍّ تَامٍّ مِنْ مَعْرِفة العربية والحديثِ وَالتَّوَارِيخ وَالأَنْسَاب، إِمَامًا كَامِلًا فِي التَّفْسِيْر، حَسْن السِّيْرة فِي التَّصَوُّف، فَبقِيَ عَزِيزًا مقبولًا قَبولًا أَتمَّ مِنَ المَلِك، مُطَاعَ الأَمْر نَحْوًا مِنْ سِتِّيْنَ سَنَةً مِنْ غَيْرِ مُزَاحمة، وَكَانَ إِذَا حَضَر المجلس لَبِسَ الثِّيَاب الفَاخِرة، وَركب الدَّوَابَ الثَّمينة، ويقول: «إِنَّمَا أفعلُ هَذَا إِعْزَازًا لِلدِّين، وَرَغْمًا لأَعدائِه، حَتَّىٰ ينظرُوا إِلَىٰ عِزِّي

وَتَجَمُّلِي، فِيرغبُوا فِي الإسلام»[1]. ثم إذا انصرف إلىٰ بيته؛ عاد إلىٰ المرقعة والقعود مع الصوفية في الخَانقَاه[2] يأكل معهم، ولا يتميز بحال، وعنه أخذ أهل هَرَاةَ التبكير بالفجر، وتسمية الأولاد غالبًا بِعَبْدِ الْمُضَافِ إلىٰ أسماء الله تعالىٰ[3].

قال الحافظ أَبُو النَّضْر الفَامِيّ: كان شيخ الإسلام أبو إسماعيل بِكْر الزمان، وواسطة عقد المعاني، وصورة الإقبال في فنون الفضائل وأنواع المحاسن، منها نصرة الدين والسنة، من غير مداهنة ولا مراقبة لسلطان ولا وزير، وقد قاسىٰ بذلك قَصْدَ الحسادِ في كل وقت، وسعوا في رُوحِه مرارًا، وعمدوا إلىٰ إهلاكه أطوارًا، فوقاه الله شرهم، وجعل قصدهم أقوىٰ سبب لارتفاع شأنه.

وقال الذهبي: «الإمام القدوة الحافظ الكبير، كان شيخ الإسلام أثريًا قُحًّا ينال من المتكلمة، وكان سيفًا مسلولًا علىٰ المخالفين».

وقال ابن رجب الحنبلي: «كان سيّدًا عظيمًا وإمامًا عارفًا وعابدًا زاهدًا ذا أحوال ومقامات وكرامات ومجاهدات، كثير السهر بالليل، شديد القيام في نصر السنّة والذبّ عنها والقمع لمن خالفها، وجرىٰ له بسبب ذلك محنٌ عظيمة».

وقال السيوطي: وكان إماما متقنًا قائمًا بنصر السنة وردّ المبتدعة.

وقال الزركلي: شيخ خراسان في عصره من كبار الحنابلة وكان بارعًا في اللغة حافظًا للحديث عارفًا بالتاريخ والأنساب مظهرًا للسنة داعيًا إليها.

وقد ألَّف عبد القادر الرهاوي كتابًا في مناقبه.

---

(١) رحمه الله؛ فما أعظم هذا الفهم، وألصقه بالإسلام وشرائعه.

(٢) خانْقاه: هو رباط الصوفية ومتعبدهم فارسية أصلها (خانه كاه) انظر: تاج العروس.

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء: ١٨/ ٥١٤، والمقصود بعبد المضاف (عبد الله) و(عبد الرحمن).. وغير ذلك.

وفاته:

كانت وفاته رحمة الله عليه بعد العصر يومَ الجمعة الثاني عشر من ذي الحجة لعام ٤٨١هـ عن خمسة وثمانين عامًا، ودفن بمقبرة قرب هَرَاة[1].

القيمة العلمية للكتاب:

يُعَدّ هذا الكتاب من عيون ما أُلِّف في مراتب المقامات والأحوال عند أهل التصوف، قال الكَاشَانِيّ: وهو كتاب فاق علىٰ كل ما صنف في هذه الطريقة، يقول ابن رجب: قد اعتنىٰ بشرح كتابه (منازل السائرين) جماعةٌ. وهو كثير الإشارة إلىٰ مقام الفناء في توحيد الربوبية، واضمحلال ما سوىٰ الله تعالىٰ في الشهود لا في الوجود. فيتوهم فيه أنه يشير إلىٰ الاتحاد حتىٰ انتحله قوم من الاتحادية، وعظموه لذلك. وذمَّه قومٌ من أهل السنة، وقدحوا فيه بذلك. وقد برأه الله من الاتحاد. وقد انتصر له شيخُنا أبو عبد الله ابن القيم في كتابه الذي شرح فيه (المنازل) وبيّن أن حمل كلامه علىٰ قواعد الاتحاد زور وباطل.

قلت: وهذا كلام ناقد بصير، ينتمي إلىٰ مدرسة طالما شنع المحدثون من أتباعها علىٰ القوم وعلىٰ علومهم.

ويقول الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ورأيت أهل الاتحاد يعظمون كلامه في منازل السائرين ويدعون أنه موافقهم ذائق لوجدهم ورامز لتصوفهم الفلسفي!! أنَّىٰ يكون ذلك!! وهو من دعاة السنة، وعصبة آثار السلف، ولا ريب أن في منازل السائرين أشياء من

---

(١) للمزيد حول ترجمته انظر: سير أعلام النبلاء: ١٨/ ٥٠٣، طبقات المفسرين للأدنروي، ص: ١٣٧، طبقات المفسرين للسيوطي، ص: ٤٦، الأعلام للزركلي: ٤/ ١٢٢، دمية القصر: ٢/ ٨٨٨، طبقات الحنابلة: ٢/٢٤٧-٢٤٨، المنتظم: ٩/٤٤-٤٥، الكامل: ١٠/١٦٨-١٦٩، العبر: ٣/٢٩٧-٢٩٨، تذكرة الحفاظ: ٣/١١٨٣-١١٩١، البداية والنهاية: ١٢/١٣٥، شذرات الذهب: ٣/٣٦٥-٣٦٦، إيضاح المكنون: ١/٣١٠ و٢/١١٨، هدية العارفين: ١/٤٥٢-٤٥٣.

نحو المحو والفناء وإنما مراده بذلك الفناء: الغيبة عن شهود السوىٰ، ولم يرد عدم السوىٰ في الخارج[1] وله بعد ذلك تقويم للكتاب من حيث درجته بين كتب من سبقه من الصوفية، وقال في تاريخه: وهو كتاب نفيس في التصّوف.

اهتمام العلماء بالكتاب:

اهتم بكتاب شيخنا رحمه الله عدد من أهل العلم، وكان الكتاب -كما يقول حاجي خليفة-: عبارة عن طلب من جماعة من الراغبين في الوقوف علىٰ منازل السائرين إلىٰ الحق من أهل هراة[2] وهو كتاب مختصر، وقد كان للمختصرات في العلوم -رغم ما اتهمت به-[3] فضل في تقريب العلوم، وتيسيرها للراغبين، إلا أن الملكات لمّا لم تكن في كل عصر وعند كل شخص علىٰ درجة سواء، فكان أن تصدىٰ أهل العلم لهذه المختصرات بالشرح والبيان.

وقد توافر علىٰ شرح: (منازل السائرين) عدد من أهل العلم، منهم:

العفيف التلمساني (٦٩٠هـ)، أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن مسعود بن عمر الواسطي الحزامي (٧١١هـ)، محمود بن محمد بن محمد بن محمود، المتوفىٰ عام (٧٤٣هـ)، الكاشاني (٧٣٠هـ) محمد بن أحمد القيسي (٧٤٧هـ)، داود بن محمود القيصري (٧٥١هـ)، ابن قيم الجوزية (٧٥١هـ) علي الأصفهاني (٨٣٦هـ)،

---

(١) انظر: تذكر الحفاظ، للذهبي: ١١٨٥/٣.

(٢) كشف الظنون: ١٨٢٨/٢.

(٣) يعد اختصار المدونة من أول ما ظهر في ظاهرة الاختصار، وقد اختصرها عبد الله بن عبد الحكم، ثم تابع الأمر عند المالكية فاختصرها البراذعي (٤٠٠هـ)، وابن أبي زمنين (٣٩٩هـ) وغيرهم، وانتقلت إلى بقية المذاهب والفنون الأخرىٰ. ولبعض أهل العلم كالشاطبي (٧٩٢هـ) وابن خلدون (٨٠٨هـ)، وغيرهم انتقادات لهذه الظاهرة، وآثارها السلبية، حتىٰ قيل عن بعضهم: إن ابن شاس (٦١٦هـ) وابن الحاجب (٦٤٦هـ) وخليلاً (٧٦٧هـ) أفسدوا الفقه. وللأول: عقد الجواهر الثمينة، وللثاني: جامع الأمهات، وللثالث: المختصر المشهور. وسنعرض لذلك تفصيلًا.

علـي بـن أحمـد بـن محمـد، الحمـوي، الـشافعي، الكيزوانـي (٨٥٥هـ)، محمـد التبادكاني، الطوسي (٨٩١هـ)، عائشة بنت يوسف الدمشقية (٩٢٢هـ)، لها الإشارات الخفية في المنازل العلية، اختصرتها من: (منازل السائرين)، المناوي (١٠٣١هـ)، محمد الشيرازي (١١١٨هـ). وغير هؤلاء، مما يعكس أهمية الكتاب ومكانته، ومدىٰ العناية به عند أهل العلم.

اللَّهُ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي
خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ
وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾

صدق الله العظيم

سورة العصر

المُقَدِّمَة

الحمد لله.. والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه ومن والاه..؛ وبعد..

فقد قَسَّمَ الشيخ في هذا الكتاب طريق الله تعالى إلى عشر مراحل، وهذه المراحل كل مرحلة منها مقسمة إلى عشرة مقامات، وفي كل مقام من هذه المقامات سيفصل لنا تفصيلًا مثلثًا في كل خطوة من هذه الخطوات، ويبين لنا كيف يترقى الإنسان من معنى إلى آخر، حتى يصل إلى مقصوده من عبادة الله ﷻ، والطريق هذا لا نهاية له، فنهايته نهاية العمر، فهو طريق وهو عبادة يصحح الإنسان فيه نيته مع الله ﷻ من المهد إلى اللحد دائمًا وأبدًا، إلى أن يلقى الله فليس له نهاية ولا حد ولا توقف بحيث إنه يقول: إنني قد وصلت وسقطت العبادة، أو إنني قد وصلت واتصلت وبهذا الاتصال يكون الأمر قد انتهى! هذه أفكار بوذية لا يعرفها المسلمون؛ حيث إن بوذا أراد أن يصل إلى (النيرفانا) ليرتاح، فلم يصل إلى شيء فألحد وأنكر الله؛ لأنه بحث عنه فلم يجده -في ظنه الكاسد الفاسد- واتبعه هؤلاء الذين هم على شاكلته إلى يومنا هذا.

الأقسام العشرة هي: **قسم البدايات:** وهي مرحلة يبدأ فيها السالك معرفة طريق الله ويتيقظ من غفلته ويتفكر في حقائق الأشياء، ثم المرحلة الثانية: **الأبواب** بعدما سرت في البدايات تأتي لك البوابة التي تدخلك على طريق الله، ثم **قسم المعاملات:** حيث تبدأ في معاملة الله، إذًا لا بد أن تتخلق بالأخلاق الحسنة، فيأتي **قسم الأخلاق** حيث تُخَلِّي قلبَك من كل قبيح وتُدْخِلُ فيه كل صحيح، وبهذا تكون قد نظفت الأرض وسوف تبني، أي: تبدأ تؤسس، ولذلك يبين لك **قسم الأصول**، أي: الأسس،

ثم **قسم الأدوية**..؛ فبعد ما أسست وبنيت بدأت هناك منازعات -الدنيا والنفس والشيطان والهوىٰ- لن تتركك سالكًا تبني فقط فتحتاج حينئذ إلىٰ أدوية، فإذا أخذت الدواء وتعالجت قد تأتي مبشرات حيث يريك الله ﷻ أشياء في نفسك؛ حتىٰ تتأكد وتتيقن ويطمئن قلبك، وهذه **تسمى الأحوال**.. لكنها عارضة وقُلَّبٌ وتذهب وتأتي، فإذا دخلت في الأحوال وانتهيت منها جاءتك الولاية، فتدخل **قسم الولايات** حيث إنك دخلت في المقامات، فتنكشف لك الحقائق، وبعد ما تصل إلىٰ **قسم الحقائق** تجد نفسك في **النهايات**، وتظل في هذه المرحلة- في النهايات- إلىٰ أن تلقىٰ الله ﷻ، فلا نهاية لها؛ فكل يوم تعلم حقائق عن المُلك والملكوت تزيدك أدبًا مع الله، أو تمكُّنًا في تربية الخلق، أو رضًا وتسليمًا بقضاء الله ﷻ وقدره.

هذا هو الطريق.. البدايات ثم الأبواب ثم المعاملات، وبعد المعاملات تأتي لك مرحلة الأخلاق فالأصول، فالأدوية فالأحوال فالولايات، ثم بعد ذلك تنكشف الحقائق فتصل إلىٰ النهايات.

من أين أتىٰ بهذه الألفاظ؟! من تطبيق كتاب الله وسُنّة رسول الله ﷺ علىٰ نفسه، ثم استبطنها ونظر ما الذي حدث فيها؛ كيف انتقل من حالة القلب الغافل إلىٰ حالة القلب الذاكر؟ كيف ترقّىٰ من لطيفة القلب، إلىٰ لطيفة الروح، إلىٰ لطيفة السر، إلىٰ لطيفة الخفي فالأخفىٰ؟ كيف انتقل من مرحلة إلىٰ مرحلة ومن حالة إلىٰ حالة؟ ولم يكتفوا بحصول ذلك من واحد أو اثنين أو ثلاثة أو خمسة أو عشرة، بل من جملة كبيرة من البشر..، ثم سجلوا ذلك؛ كما أشار هو في أول الكتاب إلىٰ أنه تتبع كل ما قيل ونظَّمه ونقحه وبَيَّنَ المقصود دون زيادة ولا نقصان، وبَيَّنَ الأساس الذي يمكن أن تعلمه حتىٰ تعرف كل شي عن نفسك من مبدئك إلىٰ منتهاك.

هذه التجربة التي جربوها يخبرك عنها السيوطي في كتابه «تشييد الحقيقة العَلِيَّة في تأييد الطريقة الشاذلية» من أن السالك يرىٰ نفس ما كتبوه، وهذا يؤكد صدقهم وأنهم كانوا خبراء في هذا الطريق، وأن الأمر إنما جاء عن تجربة نتجت من الاتباع

الصحيح للكتاب والسُنَّة كما أمر الله ورسوله ﷺ، بإخلاص النية، وبإعمال الفكر وبالتربية وبالذكر وبالخلوة.. وبغير ذلك، إلىٰ أن وصلوا إلىٰ وصف ذلك الطريق جماعةً لا فرادىٰ.

فهذا مثل علماء النحو عندما نظروا في اللغة العربية فتدبروها وتأملوها واستخرجوا منها هذه القواعد التي تجري علىٰ ألسنتنا الآن، علىٰ رغم أن هذا لم يكن علىٰ عهد رسول الله ﷺ كقواعد، ولكن كنطق وكتنفيذ؛ فالقرآن حجة في النحو، وكل ما يخرج من لسان سيدنا رسول الله ﷺ -أفصح العرب- فهو فصيح وحجة في النحو وفي اللغة، وإنما استخلص الناس من بعده هذه القواعد مما كان موجودًا فعلًا.

قال -رضي الله عنه وأرضاه- في نهاية المقدمة: (وجميع هذه المقامات تجمعها رتب ثلاث:

الرتبة الأولىٰ: أخذ القاصد في السير.

الرتبة الثانية: دخوله في الغربة.

الرتبة الثالثة: حصوله علىٰ المشاهدة الجاذبة إلىٰ عين التوحيد في طريق الفناء.

قال: أخبرنا في معنىٰ الرتبة الأولىٰ: الحسين بن محمد بن علي الفرائضي، قال: أخبرنا أحمد بن محمد بن حسنويه، قال: أخبرنا الحسين بن إدريس الأنصاري. قال: حدثنا عثمان بن أبي شيبة. قال: حدثنا محمد بن بشر هو العبدي. قال: حدثنا عُمَرَ بْنِ رَاشِدٍ، عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ أَبِي كَثِيرٍ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**سِيروا سَبَقَ الْمُفَرِّدونَ**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا الْمُفْرِدُونَ؟ -يسألون عن حالهم، وليس عن أشخاصهم، فلم يقولوا: ومن المفردون- قَالَ: «**الْمُسْتَهْتَرُونَ فِي ذِكْرِ اللهِ يَضَعُ الذِّكْرُ عَنْهُمْ أَثْقَالَهُمْ فيَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِفَافًا**»، وهذا حديث حسن.

لم يروه عن يحيىٰ بن أبي كثير إلا عمر بن راشد اليماني، وخالف محمد بن يوسف الفريابي فيه محمد بن بشير العبدي، فرواه عن عمر بن راشد، عن يحيىٰ، عن أبي سلمة، عن أبي الدرداء مرفوعًا. والحديث إنما هو لأبي هريرة(١).

رواه بندار بن بشار، عن صفوان بن عيسىٰ، عن بشير بن رافع اليماني إمام أهل نجران ومفتيهم، عن أبي عبد الله بن عم أبي هريرة، عن أبي هريرة مرفوعًا.

وأحسنها طريقًا وأجودها سندًا حديث العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ وهو مخرج في صحيح مسلم(٢).

والمستهترون في ذكر الله -وورد: «**الَّذِينَ يُهْتَرُونَ فِي ذِكْرِ اللهِ**»(٣)..- يعني: المنجذبون إليه المولعون به المداومون عليه، أو من طلب الانجذاب في ذكر الله.

ثم قال ﵁: (وروىٰ هذا الحديث أهل الشام، عن أبي أُمامة مرفوعًا. قال في كلها: «**سَبَقَ الْمُفَرِّدُون**»(٤)).

---

(١) ووقعت هذه الرواية في نسخة من المنازل بلفظ: «المهتزون الذين يهتزون» بالزاي المعجمة، وعند أحمد في مسنده: ٦٢٠/٢ برقم (٨٢٢٤)، عن ابن يعقوب قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رَسُولَ اللهِ ﷺ: «سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا الْمُفَرِّدُونَ؟ قال: «**الذين يَهْتَزُّونَ فِي ذِكْرِ اللهِ**». يهتزون بالزاي.

وقال النووي في شرح مسلم: «وقال الحاكم: قَالَ اِبْن قُتَيْبَة وَغَيْره: وَأَصْل الْمُفَرِّدِينَ الَّذِينَ هَلَكَ أَقْرَانهمْ، وَانْفَرَدُوا عَنْهُمْ، فَبَقُوا يَذْكُرُونَ الله تَعَالَى، وَجَاءَ فِي رِوَايَة: «**هُمْ الَّذِينَ اِهْتَزُّوا فِي ذِكْر الله**» أَيْ: لَهِجُوا بِهِ».اهـ. انظر: شرح النووي: ١٧/٤.

(٢) أخرجه مسلم: ٤/ ٢٠٦٢، برقم (٢٦٧٦) بلفظ: كان رسول الله ﷺ يَسِيرُ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ فَمَرَّ عَلَى جَبَلٍ يُقَالُ لَهُ جُمْدَانُ، فَقَالَ: «**سِيرُوا هَذَا جُمْدَانُ سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ**». قَالُوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتُ**». وهو عند الترمذي: ٥٧٧/٥ (٣٥٩٦) بلفظ: «**الْمُسْتَهْتَرُونَ**».

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك: ٦٧٣/١، برقم (١٨٢٣)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٤) لم أقف عليه عن أبي أمامة ﵁ فيما وقفت عليه من كتب الحديث وكلها تدور علىٰ رواية أبي هريرة، ورواية أبي الدرداء.

قال: [وأخبرنا في معنىٰ الدخول في الغربة، حمزة بن محمد بن عبد الله الحسيني (بطوس)[1]، قال: حدثنا أبو القاسم عبد الواحد بن أحمد الهاشمي الصوفي، قال: سمعت أبا عبد الله علان بن زيد الدِّيْنَوَرِيّ الصوفي بالبصرة، قال: سمعت جعفر الخلدي الصوفي، يقول: سمعت الجنيد، قال: سمعت السري، عن معروف الكرخي، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده، عن علي، عن رسول الله ﷺ قال: «**طلب الحق غربة**»[2].

وهذا حديث غريب ما كتبناه غالبًا إلا من رواية علان]اهـ.

«**طلب الحق غربة**» يعني أكثر الناس يطلبون الباطل، فإذا طلب واحد من الناس الحق كان كأنه غريب وسط الناس، ولكن النبي ﷺ يقول: «**فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَبْضِ عَلَىٰ الْجَمْرِ**»[3] إذن فلابد من الصبر علىٰ الحق، ولو كنت وحدك.. ويقول: «**عُرِضت عليَّ الأممُ، فجعل يَمرُّ النبيُّ- يعني نبي من الأنبياء- معه الرجُلُ، والنبيُّ معه الرَّجلان، والنبي معهُ الرَّهطُ، والنبي ليسَ معهُ أحد**»[4]، وإنما يعرف الحق بالحق، ولا يعرف الحق بالرجال، إنما تعرف الرجال بالحق.

فالنبي ﷺ أمرك بأن تتمسك بالحق حتىٰ ولو كنت وحدك، وأن تتمسك بالعمل، قال الحسن البصري رحمه الله: «وإن أناسًا قد غرهم بالله الغرور وقالوا إنما نحسن الظن بالله وكذبوا؛ لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل»[5].

***

---

(١) مدينة بخراسان تشتمل علىٰ بلدتَين يقال لإحداهما: الطابران، وللأخرىٰ نوقان، فتحت في أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه وبها قبر علي بن موسىٰ الرضا، وقبر هارون الرشيد.

(٢) أخرجه أيضًا: الديلمي: ٢/٤٤٣، برقم (٣٩٢٠)، وابن عساكر: ١٥/٢٣٨.

(٣) أخرجه الترمذي: ٥/ ٢٥٧، برقم (٣٠٥٨) وقال: حسن غريب.

(٤) أخرجه البخاري: ٥/ ٢١٧٠، برقم (٥٤٢٠).

(٥) انظر: تفسير النيسابوري.

ثم قال: [وأخبرنا في معنىٰ الحصول علىٰ المشاهدة. محمد بن علي بن الحسين الباساني رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: حدثنا محمد بن إسحاق القرشي، قال: حدثنا عثمان بن سعيد الدارامي، قال: حدثنا سليمان بن حرب، عن حماد بن زيد، عن مطرٍ الوراق، عن أبي بريدة، عن يحيىٰ بن يعمر، عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا. في حديث سؤال جبرائيل رسول الله ﷺ قَالَ: مَا الإِحْسَانُ؟ قَالَ: **«أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»**.

وهذا حديث صحيح غريب. أخرجه مسلم في الصحاح[1]، وفي هذا الحديث إشارة جامعة لمذهب هذه الطائفة].اهـ من مقدمة المنازل للشيخ الهروي رضي الله عنه وأرضاه.

«أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

فلخَّص المسألة؛ لأن الإحسان هو عنوان أهل التصوف وأهل الله.

❊ ❊ ❊

إذن كل ما تقدم إنما يؤكد أن هذا الطريق مقيّد بالكتاب والسنة وأنه ليس من عندهم، وإنما هو من استنباطهم ومن تطبيقهم لشرع الله كتابًا وسنة، وأنهم يستدلون بالأدلة، ويذهبون إليها ويقفون عندها ويروونها جيلًا بعد جيل، ويصححون ويضعفون ويقبلون ويرفضون، شأنهم في ذلك شأن أهل الحديث وأهل التوثيق الذين قيّدوا كلامهم وحركاتهم وسكناتهم بالكتاب والسنة.

(١) متفق عليه، البخاري:١/ ٢٧برقم (٥٠)، ومسلم: ١/٣٩، برقم (٩) واللفظ له.

الإمام العلامة نور الدين علي جمعة

سيرة ومسيرة

هو الإمام العلامة الحجة الفقيه الأصولي المفسر، أبوعُبَادَة نور الدين عليّ بن جمعة.

مولده ونشأته:

ولد -حفظه الله- في مدينة «بني سويف» بصعيد مصر، في يوم الاثنين السابع من جمادىٰ الآخر سنة ١٣٧١هـ، الموافق للثالث من شهر مارس سنة ١٩٥٢م. وقد نشأ -حفظه الله- في بيت علم وفضل وتقوىٰ، وقد مَكّنَتْهُ مكتبة أبيه العامرة من الاتصال منذ نعومة أظفاره بالعلوم والثقافة درسًا وحفظًا.

طلبه للعلم:

مَرَّ طلب العلم عند شيخنا بمرحلتين، الأولىٰ: العلم المدني، والثانية: العلم الشرعي(١).

حصل شيخنا -حفظه الله- علىٰ الشهادة الثانوية العامّة سنة ١٩٦٩م، وعلىٰ (بكالوريوس) التجارة من جامعة عين شمس في مايو سنة ١٩٧٣م.

طلبه للعلم الشرعي:

التحق فضيلة الإمام بجامعة الأزهر الشريف، بعد تخرجه من جامعة عين شمس، وتخرَّج في جامعة الأزهر في سنة ١٩٧٩م، ونال درجة التخصص الأولىٰ

(١) التقسيم هنا باعتبار التقسيم الفني؛ وإلا فالعلوم يُثَابُ صاحبها ما دامت نيته لله تعالىٰ.

(الماجستير) في سنة ١٩٨٥م ثم حصل على درجة العالمية (الدكتوراه) بمرتبة الشرف الأولى سنة ١٩٨٨م.

وقد حفظ «تحفة الأطفال» في التجويد، و«ألفية ابن مالك» في النحو، و«الرحبية» في المواريث، و«متن أبي شجاع» في الفقه الشافعي، و«المنظومة البيقونية» في علم الحديث... وغيرها كثير من الضوابط والفوائد التي أثرت تأثيرًا واضحًا في علمه واستحضاره.

شيوخه:

تتلمذ شيخنا على علماء العصر المشهود لهم بالفضل والتقدم في العلوم، فمنهم:

* **الشيخ** عبد الله بن الصديق الغماري، قرأ عليه فضيلة الإمام العلامة صحيحَ البخاري كله، وموطأ مالك، وكتاب «اللُّمَع في أصول الفقه» للإمام الشيرازي، وقرأ عليه أوائل الحديث، وأجازه بالرواية، وبالإفتاء.

* **الشيخ** عبد الفتاح أبو غُدَّة، قرأ عليه «الأدب المفرد» للإمام البخاري، وأجازه برواية العلم وبينهما ما يعرف في الحديث بالتدبيج.

* **الشيخ** محمد أبو النور زهير، قرأ عليه الإمام كتابه «أصول الفقه» وأجازه بالتدريس والإفتاء.

* **الشيخ** جاد الرب رمضان جمعة.

* **الشيخ** الحسيني يوسف الشيخ.

* **الشيخ** عبد الجليل القرنشاوي المالكي.

* **الشيخ** جاد الحق علي جاد الحق.

* **الشيخ** عبد العزيز الزيات، شيخ قراء العصر.

* **الشيخ** محمد إسماعيل الهمداني.

* **الشيخ** أحمد محمد مرسي النقشبندي.

ومشايخ أخر منهم: محمد الحافظ التيجاني، الشيخ/ السيد صالح عوض، الشيخ/ علي أحمد مرعي، الشيخ/ إسماعيل الزين اليمني الشافعي، الشيخ/ محمد علوي المالكي، الشيخ/ صالح الجعفري، الشيخ/ أحمد حمادة الشافعي، الشيخ/ محمد زكي الدين إبراهيم.

وللشيخ حفظه الله أسانيد مسلسلة بالإسناد في فروع المذاهب الأربعة.

وتلقَّىٰ شيخنا **العلوم المدنية** علىٰ عدد من الأساتذة، فمنهم السادة الأستاذ الدكتور: عيسىٰ إبراهيم عبده، يحيىٰ عويس، علي لطفي، عبد المنعم راضي، سامي مذكور، حمدي عبد الرحمن، حسين النوري، ماهر عليش، علي عبد الوهاب، سيد الهواري.. وغيرهم.

الوظائف التي شغلها:

شغل فضيلة الإمام العلامة وظائف دينية وعلمية كثيرة، نذكر أهم تلك الوظائف، ولا نراعي الترتيب في ذكرها: فعمل فضيلته عضوًا في: لجنة الفتوىٰ بالأزهر الشريف، مؤتمر الفقه الإسلامي بالهند، مجمع الفقه الإسلامي، مجمع البحوث الإسلامية، وأستاذًا لأصول الفقه بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة، وتولىٰ إفتاء الديار المصرية، منذ عام ٢٠٠٣ وحتىٰ الآن.

الأنشطة العلمية:

لفضيلة الإمام العديد من الأنشطة العلمية نقتصر علىٰ بعضها:

شارك كخبير بمجمع اللغة العربية، اشترك بوضع مناهج كلية الشريعة بسلطنة عمان، اشترك في وضع مناهج جامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية (SISS) بواشنطن، ألقىٰ الدرس الحسني عام ١٩٩٤م بحضرة جلالة ملك المغرب، ويدعىٰ للدرس كل عام، عُيِّن مشرفًا مشاركًا بجامعة هارفارد بمصر بقسم الدراسات الشرقية، عُيِّن مشرفًا مشاركًا بجامعة (أكسفورد) لمنطقة الشرق الأوسط في الدراسات الإسلامية والعربية، مثّل الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، شارك في فحص النتاج العلمي للترقية إلىٰ درجة أستاذ وأستاذ مشارك لكثير من جامعات العالم.

مؤلفاته:

ألَّف فضيلة الإمام العلامة كتبًا، وحقق تراثًا، وأشرف علىٰ موسوعات ومشاريع علمية، فمن مؤلفاته: المصطلح الأصولي والتطبيق علىٰ تعريف القياس، علاقة أصول الفقه بالفلسفة، الحكم الشرعي عند الأصوليين، أثر ذهاب المحل في الحكم، المدخل لدراسة المذاهب الفقهية الإسلامية، قضية تجديد أصول الفقه... وغير ذلك كثير.

وقد أشرف فضيلة الإمام وناقش العديد من الرسائل العلمية في جامعات مصر وغيرها، في تخصصات مختلفة، أكثرها في الفقه والأصول، وفي العلوم الاجتماعية، والاقتصاد، والعلوم السياسية، والطب.

كما أشرف الإمام علىٰ مشروعات علمية وشرعية كبيرة تمتاز بالربط بين العلم المسطور في الكتب ووسائل التقنية الحديثة في العرض والبحث.

بَابُ
اليَقَظَةِ

قسم البدايات

اليقظة

(١) لحظ القلب إلى النعمة

تصفو بثلاثة أشياء:

١- نور العقل.
٢- شيم برق المنة.
٣- الاعتبار بأهل البلاء.

(٢) مطالعة الجناية

تَصح بثلاثة أشياء:

١- تعظيم الحق.
٢- معرفة النفس.
٣- تصديق الوعيد.

(٣) معرفة الزيادة والنقصان من الأيام

تستقيم بثلاثة أشياء:

١- سماع العلم.
٢- إجابة دواعي الخدمة.
٣- صحبة الصالحين.

بين يدي اليقظة..

الخطوة الأولىٰ في قسم البدايات هي **اليقظة** وهذا يعني: «قم من غفلتك يا غافل»..؛ حيث لا يستطيع أحدٌ أن يخاطبك ويهز وجدانك إلا إذا استيقظت؛ لأن خطاب الميت أو خطاب النائم لا فائدة فيه، ولذلك سماه أهل الأصول «خطاب المُحَال»، يعني هناك حائل بيننا وبينه، ومحال أي مستحيل أن يستجيب النائم والمغمىٰ عليه والمجنون والصبي الصغير إذا ما خاطبته وقلت له -مثلًا-: قم فَصَلِّ.

فأول شيء: اليقظة، فإذا لم تتيقظ وظلت الدنيا جالسة في قلبك ومتربعة علىٰ عرشه، وآخذة بوجدانك وعقلك وتصرفاتك كلها..؛ فلا فائدة في هذا الكلام الذي سوف يتلوه عليك فيما بعد.

فأول خطوة من الخطوات هي اليقظة؛ فمن تيقظ فبها ونعمت، ومن لم يتيقظ فلا فائدة فيه البتة، فتصحيح البدايات يؤذن بتصحيح النهايات، فلابد أن تبدأ بداية صحيحة حتىٰ لا تبكي بعد ذلك وتقول: أنا أذكر ولا فائدة. أنا أذكر ولا أجد لذة الذكر. أنا أذكر وما زلت أفعل المعصية. أنت لا تريد أن تتيقظ. كيف تتيقظ؟ اعلم الحقيقة.. افهم أن الدنيا إلىٰ فناء، ولا يكفي أن تعلم أن هناك موتًا، ولا يكفي أن تعلم أن الموت حق آتٍ فكل الناس يعلم هذه الحقيقة، المؤمن والكافر، إنما يجب أن تعيش هذا، يعني أن تكون مستحضِرَهُ في تصرفاتك، ومستحضره بالكتاب والسُنَّة، وليس باليأس والكآبة بحيث أنه يسيطر علىٰ عقلك فتترك الدنيا والدين، فالسُنَّة ليست هكذا، ولكن السُنَّة أنك تعمل لأن هذه دار عمل، وأن معرفتك لهذه الحقيقة وعيشك فيها يجعلك تعمل ليل نهار؛ لكن كل أعمالك تكون مخلصة لله رب العالمين.

إذًا اليقظة نوع من أنواع الإدراك والمعرفة؛ فبيدك أن تتيقظ، بيدك أن تقنع نفسك أنه يكفي هذا الوقت الذي ضاع في الغفلة ونبدأ من الآن.

وكلما توغلنا في علم الظاهر وبعدت عنا اليقظة كلما صدأت قلوبنا وتحول العلم -حتىٰ العلم الشرعي- إلىٰ حجاب؛ فتجد هذا متكبرًا بعلمه، وهذا معجبًا به! وليس ذلك المقصود، ولكن المقصود أن هذه الأشياء تورثنا الأدب مع الله، فلو أورثتنا الكبر والعجب والغرور يكون هذا انحراف عن الطريق.

كل قسم سيكون معنا عشرة أبواب، فتصل القسمة إلىٰ مائة، وهذا الكتاب كله من أوله إلىٰ آخره للعلم؛ يعني كأنك شاهدت الطريق في التلفاز ولكنك ما سافرت ولا تحركت من مكانك، ولذلك فإن الفائدة بعد ما تقرأ هذا الكتاب أنه قد عرفك الطريق، فقد تحب السير فيه وإلا ستظل مكانك في غفلتك.

فلو اطلعت علىٰ هذا الكتاب مرات عديدة ودرسته دراسة دقيقة جدًّا؛ فسيكون هذا علمًا فقط وليس عملًا والأمر هذا مقيد بالعمل، ليس الأمر أنك قد أخذت فكرة أو معلومة، ولكن لابد أن تطبقها وتحيا بها.

بدأ بـ: «قال الله تعالىٰ»، أي أنه يبعث رسالة صريحة أن طريقنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، فنحن نستطيع أن نفعل أي شيء بأي طريقة ولكن لن نكون مسلمين من أهل الله، لكن باتباعنا الكتاب والسنة نكون مسلمين من أهل الله.

باب اليقظة

«قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ﴾ انتبه إلىٰ هذه الكلمة ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ [سبأ، من آية:٤٦] قد قرأناها كثيرًا، ألم يأت بفكر أحدنا أن معناها أن تقوم لله عملًا وأن تفيق بذلك من غفلتك؛ والتي فيها إعراض بالقلب عن الله..؛ فتقبل عليه بهمة! ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ يعني من أجل الله لا من أجل غيره، أي: إخلاص النية لله، أو يعني: تفعلون الأشياء التي يرضىٰ الله عنها، أو ﴿تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ يعني: في سبيل الله. كل ذلك محتمل.

كان أحدهم يَخِرُّ ساجدًا لله من المعاني التي تحملها كلمات القرآن -وذلك علىٰ حسب فهم القارئ أو السامع- ومع هذا فهو قد أدرك قليلًا من كثير لا ينتهي مدده؛ فعندما نتأمل في الشعر الجاهلي نجده شيئًا آخر مختلفًا تمامًا عن القرآن، ولذلك لما سمعته العرب آمنوا به بقلوبهم وأجَلُّوه وعظَّموه وخضعوا له وسجدوا لله، سجودهم لله هذا كان عن خضوع وخشوع وخبوت حقيقي؛ لأن القرآن كسرهم وأعجزهم، وكلما حاول أحدهم أن يأتي بمثله فإنه لم يفشل فقط، ولكنه كان سببًا في إظهار علو هذا القرآن، وأنه لابد أن يكون من عند الله.

قال: امرؤ القيس:

قفا نبكِ من ذِكرىٰ حبيبٍ ومنزِلِ ❊ بسقط اللِّوىٰ بين الدَّخُول فَحَوْمَلِ

فتُوضِحَ فالمِقْراةُ لَمْ يَعْفُ رَسْمُهَا ❊ لِما نَسَجَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وشَمْأَلِ

وَقَفَ واستوقفَ، وبكىٰ واستبكىٰ، وذكر الحبيب والدار.. كل ذلك في شطر بيت: «قِفا»: وقف وأوقف صاحبه، «نبكِ» أي: نبكي جماعة؛ يكون بكىٰ واستبكىٰ،

«من ذكرىٰ حبيب» فذكر الحبيب، «ومنزلِ» فذكر الدار، وهذه بلاغة عجيبة حيث أوجز كل ذلك في شطر بيت، ثم قال في الشطر الثاني: «بسقط اللوىٰ بين الدخول فحومل»، ماذا يعني هذا؟! لا شيء، «سقط اللوىٰ» هذا مكان، و«الدخول» مكانٌ ثانٍ، «وحومل» مكانٌ ثالثٌ، ولم يضف معنى جديدًا، كأنه أتىٰ بآخر ما عنده؛ لكن القرآن ليس كذلك، ولذلك فدارسة الشعر الجاهلي من الأهمية بمكان؛ لأن هذه هي المعلقات التي علقوها علىٰ باب الكعبة، لما سمعوا بدايتها انبهروا فلما سمعوا القرآن سجدوا، سجدوا لأنهم قالوا: والله ما هذا كلام بشر؛ فأرقىٰ كلام عند البشر قد سمعوه وعلقوه أمامهم.

قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ﴾؛ يعني: هناك من يأمر وآخر يتلقىٰ، يعني: خالق ومخلوق، إله وإنسان، ﴿إِنَّمَآ﴾ تفيد الحصر ﴿أَعِظُكُم﴾ أي: هناك موعظة، والموعظة هذه موعظة حسنة، وهذه الموعظة الحسنة من شأنها أن تؤثر في القلوب؛ فالمخاطِبُ هنا رب العالمين يخاطب عباده المؤمنين، ويحصر خطابه فيه لقلوبهم، كل كلمة لها معنىٰ.. ﴿بِوَٰحِدَةٍ﴾ يعني: هناك ثانية وثالثة.. إلخ[1]، معناها أن هذا أول شيء، وأول الغيث قطرة ثم ينهمر، فأولها ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ أي: أن أول الطريق اليقظة.. تأمل.. انظر من أين جاء بها!

هكذا كلام أهل الله؛ قد تجد في التفسير معنىً -أو معاني- أُخَر لا مانع؛ فهذا اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، فكله يصح مادام اللفظ يحتمله، وهذا إعجاز القرآن كلام الله، «**وَلاَ يَخْلَقُ** -لا يبلىٰ- **عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلاَ تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ**»[2]

---

(١) قال ابن عباس رضي الله عنهما: وهذا كقول الرجل للرجل: تعال حتىٰ أكلمك كلمة واحدة، ثم يكلمه بأكثر من ذلك. راجع جزء في تفسير ابن عباس.

(٢) أخرجه أخرجه الترمذي برقم (٢٩٠٦)، باب ما جاء في فضل القرآن وقال: هَذَا حَدِيثٌ لاَ نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ وَإِسْنَادُهُ مَجْهُولٌ. وَفِي الْحَارِثِ مَقَالٌ. وأخرجه الحاكم في المستدرك: ٧٤١/١، برقم (٢٠٤٠) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه بصالح بن عمر.

فالقرآن غير مخلوق، خارج الزمان والمكان، فكأنه نزل الآن.

قال: «**القومة لله هي: اليقظة من سِنَة الغفلة والنهوض عن ورطة الفترة**»؛

الماء الفاتر هو: الماء الذي كان ساخنًا ثم ذهبت حدته، وفي حديث أم سلمة رضي الله عنها: «**نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عن كُلِّ مُسْكِرٍ وَمُفْتِرٍ**»(١) فحملوا عليه المخدرات؛ لأن المخدرات تفتّر قوة الإنسان أي تخدّرها، وتفتّرها: يعني تذهب حدة نشاطها وقوتها، والعجز والكسل مما كان يستعيذ النبي ﷺ منه؛ يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ**»(٢)؛ إذن هذا الغافل ليس غافلًا عن الدنيا فهو يعرفها جيدًا، ويعرف من أين تؤكل الكتف! ويفتخر بذلك، لكنه غافل عن ربه وعن أوامره ونواهيه وعما أمره به من التخلق ومن التعلق؛ يتخلق بالأخلاق النبيلة، ويتعلق بالأهداف الكريمة التي أمره بها.

«**وهي: أول ما يستنير قلب العبد بالحياة لرؤية نور التنبيه**».

فأول بصيص نور في القلب أنك تدرك هذه اليقظة، وأول ما تقع عيناك على الحقيقة تقول: ما هذا الذي أفعله وما كل هذا اللهو الذي أنا فيه والخصام والنزاع والغفلة؟! أين الله في ذلك كله؟ وأين المقياس الذي أقيس عليه؟

يبدأ شعاع نور يدخل من هذا التنبيه لرؤية الحقيقة فتشعر بلذةالشعاع...هذا حدث من دخول شعاع، فما بالك إذا انفتحت شمس المعرفة عليك!

قال: «**اليقظة هي ثلاثة أشياء**» يعني الدليل الذي سنسير عليه.. كيف أتيقظ؟ «هي:

١ - «**لحظ القلب إلى النعمة على اليأس من عدها**»: فلابد أن قلبك يلتفت إلى النعم

---

(١) أخرجه أبو داود: ٣٥٤/٢، برقم (٣٦٨٦) كتاب الأشربة.

(٢) متفق عليه، البخاري: ١٠٣٩/٣، برقم (٢٦٦٨) كتاب الجهاد والسير، ومسلم: ٢٠٧٩/٤، برقم (٢٧٠٦)، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

التي أنت فيها، فمثلًا عندك عينان تتحركان كما تريد فلا تحتاج إلىٰ من يرشدك ويدلك ويقيك الصدام بالأشياء والأشخاص، فإذا كان عندك عين واحدة أيضًا نعمة لأن هذه العين ترىٰ بها وفَقْد العين الثانية فيه خير كذلك، فإذا كنت ضريرًا تكون راضيًا أيضًا؛ فعن أَبي هُرَيْرَة، رَفَعَهُ إِلَىٰ النبيِّ ﷺ قال: «**يَقُولُ اللهُ ﷻ: مَنْ أَذْهَبْتُ حَبِيبَتَيْهِ فَصَبَرَ وَاحْتَسَبَ لَمْ أَرْضَ لَهُ ثَوَابًا دُونَ الْجَنَّةِ**»[1].

إذًا ضَمِنَ له الجنة وما عليه فقط إلا أن يلتفت إلىٰ تلك النعمة، نعمة من الله أن اختارك أيها الضرير الكفيف لكي تكون بصيرًا، فعندما تذهب العينان تتيقظ الحواس الأخرىٰ! يعلم من يدخل عليه؛ هل يعلمه بالحرارة، بالصوت، بطول الإنسان؟! الله أعلم.

نعمة التنفس: يعلمها جيدًا من عنده ربو يعرف ماذا تعني نعمة التنفس، نعمة التذوق، نعمة السمع، نعمة الصحة، نعمة الأولاد، عدم وجود أولاد أيضًا نعمة كبيرة في هذا الزمن النكد الذي فيه ضرب الابنُ أمه وأباه... إلخ.

ابدأ في النظر إلىٰ النِعَم حولك ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبرهيم، من آية:٣٤]، ولحظك للنعمة ليس مرادًا في ذاته، وإنما ليوصلك إلىٰ لَحْظ المنعم؛ لأنك لن تدرك منتهىٰ هذه النعم، والنبي عليه الصلاة والسلام يرشدنا في هذا الأمر ويقول: «**انْظُرْ إِلَىٰ مَنْ تَحْتَكَ وَلا تَنْظُرْ إِلىٰ مَنْ فَوْقَكَ، فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لا تُزْدَرَىٰ نِعْمَةُ اللهِ عِنْدَكَ**»[2]، ولذلك تجد أهل الدنيا متبرمين دائمًا سواء أُعْطوا أم لم يعطوا، فمهما أعطيت الواحد منهم فهو يريد أكثر؛ حيث ينظر إلىٰ من هو فوقه في الدنيا، وكلما نظر إليه كلما تألم، ويتكبر علىٰ من هو أقل منه في الدنيا فيحيا في نكد، لماذا؟ لأنه نائم لم يتيقظ بعد.

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٤٤٣)، كتاب الزهد، وقال: حسن صحيح.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه: ٧٦/٢ برقم (٣٦٠). باب ما جاء في الطاعات وثوابها من حديث أبي ذَرّ ﷺ.

إذًا نحن الآن لدينا منهج محدد؛ نبدأ نلحظ بقلبنا النعمة -مع اليأس من عدها- فتوصلنا إلىٰ المنعم، بعدما تفكر هكذا مع نفسك تجد أن هناك نِعَمًا كثيرة لم تكن تشعر بها من قبل، ولذلك يجب: «**الوقوف علىٰ حَدِّها، والتفرُّع إلى معرفة المنة بها**»؛ فالنعمة ليس معناها الأكل فقط، ولا الشرب فقط، ولا العين فقط، ولا العلم فقط، ولا العمر فقط.. فلابد عليك أن تعلم معنىٰ النعمة، ولذلك ستجد أشياء كثيرة جدًا لم تكن ملتفتا إليها بينما هي نعمة كبرىٰ.

«**والعلم بالتقصير في حقها**» فكان ينبغي أن تقول الحمد لله علىٰ كل نعمة ولكن ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾، إذن سنظل طول النهار لا نعمل ونقول: الحمد لله، الحمد لله، الحمد لله، الحمد لله.... وفي النهاية فإن الحمد نعمة تستلزم الحمد. مَن الذي وفقك فجعلك تحمد؟ إذن اشْكُرْهُ علىٰ الحمد لله: الحمد لله علىٰ أنك وفقتني إلىٰ هذا الذكر، الحمد لله أن وفقتني علىٰ أن أشكر حمدك علىٰ نعمتك، الحمد لله علىٰ أن أشكر حمدك علىٰ حمدك علىٰ حمدك علىٰ نعمتك، الحمد لله... وماذا بعد ذلك؟!

لن ننتهي، في كل مرة أنت مدين ولست دائنًا؛ فكلما حمدت، تجد نفسك مدينًا بنفس الحمد! فيشعر الإنسان أنه لا ملجأ من الله إلا إليه، وأنه ﷻ بيده الخير، «**سُبْحَانَكَ لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ**»[1]، تعلم أنك ضعيف ومقصر، فتدعو وتقول: اللهم ارحم ضعفنا واجبر تقصيرنا. فيشعر الإنسان بالعجز والحياء أمام الله دائمًا.

---

(١) جزء من دعاء النبي ﷺ، فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: فَقَدْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَيْلَةً مِنَ الْفِرَاشِ فَالْتَمَسْتُهُ فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَىٰ بَطْنِ قَدَمَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ وَهُوَ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ**». أخرجه مسلم: برقم (٤٨٦) كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود.

إذن الشرط الأول حتىٰ تتيقظ هو أن قلبك يلحظ النعمة إلىٰ أن يصل إلىٰ المنعم بالشروط التي ذُكِرَتْ، وهي أنك لابد أن تعرف معنىٰ النعمة، لابد أن تيأس من عدها، لابد أن تعرف أنك مقصر في حمدها... وهكذا، وتشعر بالمنَّة لصاحب المنة تَعَالَىٰ.

٢- «مطالعة الجناية والوقوف علىٰ الخطر فيها والتشمير لتداركها والتخلص من رِبقها وطلب النجاة بتمحيصها»:

(مطالعة الجناية) يعني: المعاصي؛ فَشَمِّرْ ساعد الجد واستعد لتركها، فلابد أن يكون لك وقفة ويكون عندك همة، وهذه الهمة لا تأتي بالأذكار، فهناك من الناس من يسأل: هل يوجد ذكر يقوي الهِمَّة؟ لا.. الهمة تأتي منك لأنك مكلف، لابد أن تأتي من داخل قلبك، هذه الهمة هي التي ستجعلك تخلع نفسك عن الجناية وعن المعصية وتفرض ذلك عليك.

وَالنَّفْسُ كالطِّفْلِ إِنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ عَلَىٰ * حُبِّ الرَّضَاعِ وإِنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ
فحَاذِرِ النَّفْسَ والشَّيْطَانَ واعْصِهِمَا * وإِنْ هُمَا مَحَّضَاكَ النُّصْحَ فَاتَّهِم
ولا تُطِعْ مِنْهُمَا خَصْمًا وَلا حَكَمًا * فأَنْتَ تَعْلَمُ كَيْدَ الخَصْمِ والحَكَمِ

إذن النفس كالطفل إن تهمله شب علىٰ الرضاع وأدمنه، وإن تفطمه ينفطم؛ فافطم نفسك، واجعلها تحت قدميك، فديننا أوجد الإنسان المصلح وليس المفسد، الإنسان الطيب وليس الشرير، وأعداء الدين أوجدوا إنسانًا شاذًا في تفكيره مفسدًا في أرض الله، متكبرًا، متعنتًا عنيدًا.

٣- «الانتباه لمعرفة الزيادة والنقصان من الأيام والتنصل عن تضييعها، والنظر ليتدارك الفائت منها ويعمر باقيها»:

فيجب معرفة قيمة الوقت وأنه عَرَض غير قارّ، وأن الذي يفوت منه لا يأتي مرة

أخرىٰ، وأن الإنسان لو عرف أن الزمن الذي يتسرب منه وأن اليوم الذي يذهب لن يرجع ثانية يحدث له هلع.

إذن هذه الساعة التي تحياها الآن لابد أن تجعلها في شيء مفيد وإلا ضاعت منك؛ فعليك بالضن بها لتدارك فائتها وتعمير باقيها.

يقول الإمام الشافعي: صاحبت الصوفية فاستفدت منهم «الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك».

إذن اليقظة ثلاثة أشياء؛ أول شيء: لحظ القلب إلىٰ النعمة حتىٰ تعلم المنعم، الثاني: الاعتراف بالجناية وتركها، الثالث: إدراك حقيقة الوقت وأن الدنيا إلىٰ زوال.

إذا حدث لنا ذلك وانتبهنا فقد وقفنا علىٰ معنىٰ اليقظة؛ فليس العبرة في ذلك كله بالعلم والحفظ فهذا أمر سهل، ولكن العبرة بالعمل، فإذا عرفت اليقظة فابدأها مباشرةً بالالتفات إلىٰ المنعم وبمعرفة حقيقة الدنيا وأنها إلىٰ زوال، وبتقصيرك في الجناية..؛ فانخلع عنها واعمل لنفسك وقفة، واترك السير وراء النفس التي شابت في حب الرضاع..!

اليقظة أول الطريق فليس هناك فائدة في أن تكلم نائمًا ولا أن تكلفه بشيء، فإذا قلت له: صَلِّ وصم وزكِّ واتق الله -لا يفيد ذلك شيئًا لأنه نائم، إذن فلابد من اليقظة.

وما معنىٰ اليقظة؟ أن يتنبه قلبك وأن يلتفت إلىٰ الحقيقة وهي تتلخص في أنه لا حول ولا قوة إلا بالله- تلك الحقيقة التي بنىٰ ابن عَطَاء كل حِكَمِه عليها، وتعلم الحقيقة وهي: أنه لا خالق إلا الله، ولا رازق إلا الله، ولا محيي إلا الله، وأن هذا الوجود إنما يستمد وجوده ومدده وبقاءه من الله، وأن الله ﷻ بخلاف العالم وهو مخالف لكل الحادثات؛ فالله قديم والعالم حادث، والله باقٍ والعالم فانٍ، والله لا أول له ولا آخر له والعالم له أول وله آخر، والله حيٌ بيده القوة لا يحتاج إلىٰ أحد؛ فهو قيوم السماوات والأرض، والناس تحتاج إليه.

قال: «**فأما معرفة النعمة فإنها تصفو بثلاثة أشياء**»:

يرشدك إلىٰ ما يساعدك علىٰ معرفة النعمة؛ حتىٰ تحقق بها اليقظة التي سوف تحقق بها أول خطوة في الطريق إلىٰ الله ﷻ.

١- «**نور العقل**»: هناك قلب وهناك عقل وهناك سلوك؛ القلب ينبغي أن يعلو علىٰ العقل، والعقل ينبغي أن يعلو علىٰ السلوك حتىٰ تكون عبدًا ربانيًا، وحتىٰ تتلقىٰ الأوامر والنواهي من الله ﷻ فتجد لها محلًا عندك: لابد أن قلبك يسيطر علىٰ عقلك وأن عقلك يسيطر علىٰ سلوكك، لكن المصيبة التي نعيش فيها أن سلوكنا قد سيطر علىٰ عقولنا، ونشاطنا سبق تفكيرنا، وأن عقولنا سيطرت علىٰ قلوبنا فأسكتتها؛ أي أن أحدنا يرىٰ الشهوات أو المصالح أو المنافع أو جلب الملذات فإذ به يبادر إليها دفعة واحدة، دون حكمة، دون روية، دون تعقّل، دون تفكّر، ثم بعد ذلك يفكر في تبريرها شرعًا ووضعًا ويجد لها كل مخرج، ثم بعد ذلك إذا حدثه قلبه بأن ما تفعله فيه شبهة أو خطأ أو لا ينبغي أن يكون_ أسكت قلبه وأَوَّلَه له وبَرَّرَه!

ولكن إذا سيطر القلب علىٰ العقل، وسيطر العقل علىٰ السلوك والنشاط- حدث ما يسمىٰ: «نور العقل»، ونور العقل هذا سر من الأسرار يعرفه العارفون، نور العقل هذا لو تكلمنا فيه لن ننتهي؛ فنكتفي فيه بالتذكير بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة، من آية:٢٦٩]، إنه رب العالمين الذي يتكلم.

مَن الذين يعلمون؟ مَن علم أن له في كل شيء آية تدل علىٰ أنه الواحد، مَن رأىٰ الله في كل شيء، مَن قال: لا إله إلا الله، سبحان الله، حسبنا الله، إنا لله، ما شاء الله؛ ليس بألسنتهم فقط، ولا بأفهامهم فقط، وإنما يعيشون فيها.

هناك فرق بين أن تقول: سبحان الله، لا إله إلا الله. بلسانك، وبين أن تفهمها بعقلك، وبين أن تؤمن بها في جَنانك، وبين أن تعيشها بالكيان، فرق كبير! هذه الكلمات لابد أن تعيشها، لا يكفي أن تتلوها باللسان، ولا يكفي أن تفهمها

بالأذهان، ولا يكفي أن تُقِرَّها في قلب وجَنان، ولا يكفي حتىٰ أن تعمل بها بالأركان، إنما لابد عليك أن تعيش فيها، وعندما تعيش فيها، ترىٰ لذتها ويسطع حينئذ «نور العقل».

«نور العقل» يصفو لك بأن تجعل قلبك فوق عقلك، وعقلك فوق نشاطك، فإذا جعلت نشاطك فوق عقلك وعقلك فوق قلبك ينعكس الحال، وانعكاس الحال هو الذي نعيش فيه في هذه الأيام في هذا العصر النكد؛ لأننا قد قلبنا الأمور، فلابد عليك أن تعدلها مرة ثانية وتجعل قلبك هو الذي يتكلم، وقلبك هو الذي يحكم فيك، وقلبك هو الذي يتصل بالله ﷻ، وأعلم أن أي شيء قد ورد في ذهنك لا يوصلك إلىٰ الله- فليس بعلم، وما ليس بعلم فهو جهل.

٢- **«وشَيْم برق المنة»**: يعني إدراكها؛ فربنا منان وحنان، وقد ورد في حديث أبي هريرة في الأسماء الحسنىٰ الذي أخرجه الترمذي، وهو مروي بثلاث روايات بعضها يختلف عن بعض، ففي بعضها: الحنان المنان[1]، وعن أنس بن مالك، قال: كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ جَالِسًا فِي الْحَلْقَةِ، وَرَجُلٌ قَائِمٌ يُصَلِّي، فَلَمَّا رَكَعَ سَجَدَ وَتَشَهَّدَ، دَعَا فَقَالَ فِي دُعَائِهِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ، لا إِلهَ إلا أَنْتَ الْحَنَّانُ الْمَنَّانُ، بَدِيعُ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ، يَا ذَا الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ، يَا حَيُّ يَا قَيَّامُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ...، فَقَالَ النَّبِيُّ: **«أَتَدْرُونَ بِمَا دَعَا»**؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمْ. فَقَالَ: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ دَعَا بِاسْمِهِ الْعَظِيمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سئِلَ بِهِ أَعْطَى»**[2].

إذا شعرت في نفسك أن الله ﷻ قد من عليك وتعيش بها، فإنك تجد لها بريقًا وتجد لها وميضًا وتجد لها حلاوة، هذه الحلاوة لها علامات، هذه العلامات تساعدك في قضية اليقظة وفي قضية معرفة المنة.

---

(١) أخرجه الحاكم: ٦٣/١، برقم (٤٢) وقال: محفوظ. وأخرجه أيضا: أحمد: ٤٩٩/٢، برقم (١٠٤٨٦).

(٢) أخرجه أحمد: ١٥٨/٣، برقم (١٢٦٣٢)، قال الهيثمي: (١٥٦/١٠): رجاله ثقات إلا أن ابن إسحاق مدلس وإن كان ثقة، وأخرجه ابن حبان في صحيحه: ١٢٥/٣، برقم (٨٤٥).

إذن لابد عليك أن تكون رقيبًا دقيقًا لا يفوتك شيء، ثم لابد عليك أيضًا من أن تضبط نفسك فتجعل القلب فوق العقل، والعقل فوق السلوك حتىٰ يحدث لك ما يسمىٰ «نور العقل»، ولابد عليك أيضًا بنور العقل أن تدرك العلامات التي تؤدي بك إلي معرفة حلاوة المنة.

٣- «**والاعتبار بأهل البلاء**»: تنظر إلىٰ من هو أدون منك في الدنيا ولا تنظر إلىٰ من هو فوقك.. «**انْظُرْ إِلَىٰ مَنْ تَحْتَكَ وَلا تَنْظُرْ إِلَىٰ مَنْ فَوْقَكَ، فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لا تُزْدَرَىٰ نِعْمَةُ اللهِ عِنْدَكَ**»(١)، الذي ينظر إلىٰ من فوقه دائمًا يكون متبرمًا، فالذي عنده سيارة ينظر لمن لديه حافلة (أتوبيس)، والذي عنده حافلة ينظر لمن عنده شركة (حافلات)، والذي عنده (شركة حافلات) ينظر لمن عنده شركات عابرة للقارات ولن ننتهي، والكل إلىٰ زوال والكفن ليس له جيوب، لكن لو نظرت للذي يمشي علىٰ رجليه تقول: أنا في نعمة ما بعدها نعمة، لو نظرت في صحتك فنظرت في أهل البلاء من المرضىٰ- تقول: الحمد لله.

أحدهم أَلَّفَ كتابًا أسماه «أنت يا أيها الإنسان كم تساوي؟!» النتيجة كانت أنه يساوي مائة وخمسة وسبعون قرشا: كالسيوم.. فوسفات.. ماغنسيوم.. إلخ. ولكن الكِلية بكم يبيعونها الآن؟ القلب بماذا يقدر؟ لكي تمكث أيامًا قليلة في مستشفىٰ خاص.. كم تدفع؟

إذن فالصحة نعمة تدركها تمامًا عندما تنظر إلىٰ أهل البلاء؛ فتقول في سرك بينك وبين ربك، مقرًا بنعمته عليك، غير متكبر علىٰ أحد، بل داعيًا الله أن يتم النعمة: - الحمد لله الذي عافاني مما ابتلىٰ به كثيرًا من عباده.

هذا كله ونحن ما زلنا في أول الطريق..؛ أمامنا الطريق طويل، وسوف يتغير هذا الأسلوب في الكلام ولكن هذا الكلام الآن للمبتدئين؛ فعندما تجد جاهلًا

(١) سبق تخريجه من رواية ابن حبان ص٤٢.

وأنت أوتيت علمًا، أو عاصيًا وأنت أوتيتَ عبادة، أو إنسانا ابتلي بذنب وأنت ما ابتليت بهذا الذنب... فينبغي عليك أن تحمد الله ﷻ علىٰ أن نجاك، ولكن عليك أن تنظر إلىٰ معنىٰ آخر: وهو أنك تحزن عليه وتعطف عليه وتدعو له، ولا تعيره بذنبه؛ لأنه «مَنْ عَيَّرَ أَخَاهُ بِذَنْبٍ، لَمْ يَمُتْ حَتَّىٰ يَعْمَلَهُ»(١).

إذن تصفو معرفة النعمة بثلاثة أشياء: نور العقل - وهو نور رباني يحدث لما يستقيم حالك فتجعل القلب فوق العقل، والعقل فوق السلوك- فيحصل نور العقل، ونور العقل هذا هو مفتاح في يديك تستعمله في: إدراك المنة، ويساعدك في: النظر إلىٰ من هو دونك لا النظر لمن هو فوقك.

كل هذا ما زلنا في أول الطريق فيُقَوِّي الشيخ همتنا للسلوك إلىٰ الله ﷻ، فلا تنس أن الله مقصود الكل، وأن ملتفتًا لا يصل؛ فإياك أن تلتفت في الطريق.. لا بشيء ولا بأنوار ولا أسرار ولا كرامات ولا....؛ فلا تلتفت عن الله بشيء أبدًا مهما تزخرف وتزين لك، وسواء فتح عليك الله أو أبطأ عليك.. ارضَ وسلِّمْ؛ فإن الرضا والتسليم أساس الطريق وغاية الطريق.

وهناك أسس لابد أن تسير عليها بينك وبين ربك، وبينك وبين إخوانك، وبينك وبين الخلق، وبينك وبين نفسك.

أساس العلاقة التي بينك وبين ربك: الرضا والتسليم، وبهما يستقيم لك كل شيء.

أساس العلاقة التي بينك وبين إخوانك: الكرم القائم علىٰ الحب، فالحب عطاء من غير حساب ولا انتظار شيء.

أساس العلاقة التي بينك وبين الخلق: الرحمة: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:١]

(١) أخرجه الترمذي: ٦٦١/٤، برقم (٢٤٢٩)، ووصله بقول أحمد بن منيع: (مِنْ ذَنْبٍ قَدْ تَابَ مِنْهُ) وقال: حديث حسن غريب، وليس إسناده متصل، قال المباركفوري: ومع انقطاعه قد حسنه الترمذي فلعل تحسينه لمجيئه من وجه آخر أو لشاهد له فلا يضره انقطاعه. تحفة الأحوذي، وانظر كلام المناوي عليه في فيض القدير: ١٨٣/٦.

«الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ. ارْحَمُوا مَنْ في الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ في السَّماءِ»(١).
«وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»(٢).

أساس العلاقة التي بينك وبين نفسك: «وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا»(٣).

إذن القضية واضحة: اضبط نفسك، وتذكر المنة، وانظر دائمًا أن جميع الخلق أفضل منك، يقول سيدي أبو مدين: «وخلِّ حظك -مهما قدَّموك- ورا».

«وأما مطالعة الجناية فتصح بثلاثة أشياء:

١- بتعظيم الحق ﷻ: الحق اسم من أسماء الله، ولذلك فالحق واحد لا يتعدد؛ لأن الحق هو الله فلابد أن تعظمه ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ﴾ [الزمر، من آية:٦٧]، كلما عظَّمت الله في قلبك كلما شعرت في نفسك بالتضاؤل إلىٰ أن تصل إلىٰ مرحلة العدم؛ حيث تشعر بأنك عدم، وأنك لا شيء، وهذا هو نصف الطريق حيث إن الله ﷻ لو قطع الإمداد لفنينا، لو أذن بفناء الكون بكلمة «كن فانيًا» يفنىٰ في الحال ما بين الكاف والنون يقطع المدد حيث إننا نخلق كل لحظة، ولذلك من دعاء النبي ﷺ: «فَلا تَكِلْنِي إِلَىٰ نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ»(٤)؛ لأنه لو أوكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين نفنىٰ، فوجودنا المستمر هذا هو بأمر الله فما زال الله خالقًا ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ [الرحمن، من آية:٢٩].

إذن، عظِّم الحق في قلبك، ودَرِّبْ نفسَك علىٰ هذا التعظيم لأن المسألة مسألة

---

(١) أخرجه أبو داود: ٢٨٥/٤، والترمذي: ٣٢٣/٤ من حديث عبد الله بن عمرو ﭭ، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

(٢) أخرجه الترمذي: ٣٥٥/٤، برقم (١٩٨٧) وقال: حسن صحيح. والحاكم: ١٢١/١، برقم (١٧٨) وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي ونصه: «**اتَّقِ اللهَ حَيْثُ مَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**».

(٣) جزء من الحديث السابق.

(٤) أخرجه أبو داود: ٣٢٤/٤، برقم (٥٠٩٠)، وابن حبان: ٢٥٠/٣، برقم (٩٧٠).

تدريب، وفي النهاية تجد نفسك أنك كلما عظمت الله كلما تضاءلت في نفسك فلا تستطيع أن تمشي في الأرض مرحًا أو فخرًا، ولا تريد أن تهد الجبال ولا تخرق الأرض ولا تتكبر، بل تشعر في نفسك أنك مسكين، وأنك مفتقر إلىٰ الله تعالىٰ في كل شيء وفي كل وقت.

٢- «**ومعرفة النفس**»: فمن عرف نفسه عرف ربه، من عرف نفسه بالهلاك والفناء والاحتياج، عرف ربه بأنه قيوم السماوات والأرض لا يحتاج إلىٰ أحد.

٣- «**وتصديق الوعيد**»: الأمر جد لا مزاح فيه وهناك جنة ونار ويوم آخر وحساب وجزاء وصراط وميزان.

«**وأما معرفة الزيادة والنقصان من الأيام**- وهو إدراك الوقت وأنه عرض غير قار، وأن هذا الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك وأن ما مضىٰ من الأيام لا يأتي أبدًا- **فإنها تستقيم لك بثلاثة أشياء**» تساعدك علىٰ أن تصل للمقصود.

١- **بسماع العلم**: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥]، وفي الذكرىٰ علم، والعلم هو ما وَصَلَ إلىٰ الله؛ العلم هو ما حَرَّكَ قلبك، فالمعلومة التي تدخل قلبك ولا تحركه عدم تحصيلها أحسن؛ فهي ليست بعلم؛ ولذلك قالوا عن بعض مسائل العلم: هذا علم لا ينفع والجهل به لا يضر.

٢- «**وإجابة دواعي الخدمة**»: لابد عليك أن تستجيب ويكون عندك همة لخدمة الله ﷻ في أرضه بالعبادة وبالعمارة كما أمر.

٣- «**وصحبة الصالحين**»: «**مَثَلُ الجَليس الصالح والسّوءِ كحاملِ المسكِ ونافخ الكِير، فحاملُ المِسكِ إمّا أن يُحذِيك، وإمَّا أن تَبتاعَ منهُ، وإمّا أن تجِدَ منه ريحًا طيِّبةً. ونافخُ الكِير إمّا أن يَحرِقَ ثيابك، وإمّا أن تجِدَ ريحًا خَبيثةً**»(١)، ابتعد عن

---

(١) متفق عليه، البخاري: ٧٤١/٢، برقم (١٩٩٥)، كتاب البيوع، ومسلم: ٢٠٢٦/٤، برقم (٢٦٢٨) كتاب البر والصلة والآداب.

الأشرار وصاحب الأخيار، يقول الله تعالىٰ: ﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [التوبة، من آية: ١١٩]. لماذا؟

أَلْقَاهُ فِي الْيَمِّ مَكْتُوفًا وَقَالَ لَهُ ❊ إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَبْتَلَّ بِالْمَاءِ

حيث إن مصاحبة الأشرار ستحيطك ببيئة لا تساعدك علىٰ الطاعة وعبادة ربك، فكن مع الصالحين لكي تعرف بواسطة العلم والهمة الإجابة لدواعي الخدمة، وصحبة الصالحين تساعدك علىٰ أن تستقيم في إدراك الأزمان، فتملؤها بالطاعات وتحزن لو حصل منك هفوة ولا تديم عليها.

«**وملاك ذلك كله**» -مِلاك هذا الكلام الذي تحدثنا عنه في درجة اليقظة- حيث إن الأمور قد تشعبت وتشتت الذهن ونريد أن نتعلق بشيء، ونعرف قاعدة نسير عليها حتىٰ نرتقي عن هذه الدرجة- فقال رضي الله عنه: «**وجوب خلع العادات**»، وهذه العادات أربعة:

كثرة الكلام، وكثرة المنام، وكثرة الطعام، وكثرة الأنام.

الأولى: كثرة الكلام: يقول معاذ رضي الله عنه: يَا نَبِيَّ اللهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: «**ثَكِلَتْكَ أُمّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ- أَوْ عَلَىٰ مَنَاخِرِهِمْ- إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ**»(١)، فأول شيء في الطريق تجد الشيخ يطلب منك أن يطول سكوتك، خصوصًا النساء عندهم هذا الأمر أكثر من اللازم، واهتمام بعالم الأشياء والأشخاص أكثر من اللازم، وهذه عادة ممكن تركها فهي ليست خِلقية، فهذا يعكر علىٰ السالك سلوكه، فأول شيء يفعله: قلة الكلام، وهذا المخاطب به المسلم إذا أراد أن يسلك طريق الله ذكرًا كان أو أنثىٰ.

---

(١) جزء من حديث أخرجه الترمذي، برقم (٢٦٨٣) كتاب الإيمان، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

الثانية: كثرة المنام: فعدد الساعات التي ننامها غير معقولة..! (كيسنجر) الصهيوني الذي آذانا وآذى المنطقة ينام أربع ساعات فقط، وعشرون ساعة يفسد في الأرض..! ونحن ليست عندنا همة في عمارتها! ولذلك تداعت علينا الأمم كما قال سيدنا رسول الله ﷺ: «**يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَىٰ عَلَيْكُم كَمَا تَدَاعَىٰ الأَكَلَةُ إِلَىٰ قَصْعَتِهَا**»، فقالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قالَ: «**بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُم غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ الله مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ المَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ الله في قُلُوبِكُم الوَهْنَ**»، فقالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ الله وَمَا الْوَهْنُ؟ قالَ: «**حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ المَوْتِ**»[(1)].

وإن شاء الله سيعود الإسلام؛ قال ﷺ: «**بَدَأَ الإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا. فَطُوبَىٰ لِلْغُرَبَاءِ**»[(2)] فكن أنت من الغرباء، واحمل الرسالة مرة أخرىٰ؛ فإن الله سينصر الإسلام والمسلمين رغمًا عن العالمين..، «**ويُلْقِي الإِسْلَامُ بِجِرَانِهِ إِلَىٰ الأَرْضِ**»[(3)]، ولكن هذا يحدث إذا وُجد مسلمون يباهي الله بهم الملائكة.

إذن قلة المنام تساعدك علىٰ الذكر وعلىٰ الطاعة وعلىٰ التماس الأوقات المباركة وعلىٰ تهذيب النفس وعلىٰ الهدوء وعلىٰ أشياء كثيرة، وتنكشف لك الأمور علىٰ حقائقها.

أنت تسلك هذا الطريق- مائة باب- ولا نعلم متىٰ يأتي الفتح؟ قد يكون بعد ثلاثين سنة، وقد لا يفتح عليك إلىٰ أن تموت، وقد يفتح عليك في يوم؛ فإن فضل الله لا حدّ له ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [الجمعة، من آية: ٤].

الثالثة: كثرة الطعام: وهذه بلوىٰ كبيرة قد عمّت، وقلة الطعام تساعدك في صفاء الروح، وتساعدك علىٰ ألا تأكل حرامًا؛ لأن الحرام قد شاع.

---

(١) أخرجه أبو داود، برقم (٤٢٩٤) الملاحم، وأحمد بنحوه برقم (٢٢٠١٩) عن ثوبان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم، برقم (٣٢٨) كتاب الإيمان.

(٣) أخرجه أحمد، برقم (٢٥٤٦٧)، و ابن حبان في صحيحه، برقم (٦٦٤٣) باب إخباره عما يكون. من حديث أم سلمة رضي الله عنها. يلقي بجرانه أي: بشبكة، والمعنىٰ يعمّ الأرض.

من الأسباب التي أدت إلىٰ فساد أخلاق الناس عدم اهتمامهم بالطعام؛ فالناس أصبحت تأكل أي شيء الآن ولو كان غير زكي ﴿ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف، من آية: ١٩]، فالقضية ليست حلالًا وحرامًا فقط. إذن يجب عليك أن تقلل الطعام وتأكل الزكي منه، وقبل كل ذلك أن يكون حلالًا نظيفًا، وتقول: «الحمد لله» تلذذًا بنعمة الله وليس تأدية واجب فقط، ولن تشعر بذلك إلا إذا قللت من الطعام، وهذا يساعد الجسم علىٰ أن يظل نشيطًا وصحيحًا، فإذا دعا داعي الجهاد كان مستعدًا له ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال، من آية: ٦٠].

الرابعة: كثرة الأنام: ونحن في الطريق إلىٰ الله نعرف الحقائق وتتعلق قلوبنا بالله، فنخرج من إيثار الدنيا ونخلع العادات ونقلل الكلام والمنام والطعام والأنام ونقتصر علىٰ الصالحين، ونبدأ من هذا في الدعوة إلىٰ الله؛ قال رسول الله ﷺ: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً**»[1] ﴿ فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [غافر، آية: ١٤]، وهذا الطريق مقيَّد بالكتاب والسنة.

---

(١) أخرجه البخاري: ٣٣٨٦.

بَـابُ

التَّـوْبَةِ

التوبة

لا تصح إلا بعد معرفة الذنب

وهي أن تنظر فيه إلى:

١- انخلاعك عن العصمة حين إتيان الذنب.

٢- فرحك عند الظفر به.

٣- قعودك على الإصرار عن تداركه مع يقينك بنظر الحق إليك.

شرائط التوبة:

١- الندم. ٢- الاعتذار. ٣- الإقلاع.

حقائق التوبة:

١- تعظيم الجناية. ٢- اتهام النفس في التوبة. ٣- طلب إعذار الخليقة.

سرائر حقيقة التوبة:

١- تمييز الثقة من الغِرَّة.

٢- نسيان الجناية.

٣- التوبة من التوبة أبداً.

لطائف أسرار التوبة:

١- النظر إلى الجناية والقضية فيعرف مراد الله تعالى منها إذ خلاه وإتيانها.

٢- أن يعلم أن طلب نظرِ البصير الصادق سيئته لم يبق له حسنة بحال لأنه يسير بين مشاهدة المِنَّة وتطلب عيب النفس والعمل.

٣- أن مشاهدة العبد الحكم لم تدع له استحسان حسنة ولا استقباح سيئة لصعوده من جميع المعاني إلى معنى الحكم.

مراتب التوبة:

١- توبة العوام (لاستكثار الطاعة).

٢- توبة الأوساط (من استقلال المعصية).

٣- توبة الخواص (من تضييع الوقت).

بين يدي التوبة..

اليقظة هي أن يلتفت الإنسان إلىٰ الحقيقة، والسعي إلىٰ الحقيقة يجعله متيقظًا، وحقيقة الدنيا أنها إلىٰ زوال لا تبقىٰ، فإذا عرف الإنسان ذلك عرف أن الله تعالىٰ هو الباقي وحده، وإذا عرف أن الله هو الباقي، وأن المخلوق فانٍ في نفسه ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧] فإنه يعلم احتياجه إلىٰ ربه، وأن الله هو قيوم السماوات والأرض، وأن الله مخالف للحوادث وأن الرب رب والعبد عبد، وأن هناك فارقًا بين المخلوق والخالق، كل هذا يتضح من اليقظة، والذي يساعد علىٰ اليقظة ومعرفة الحقيقة: استحضار المِنَّة، واستحضار الجناية.. المِنَّة من ربنا، والجناية من أنفسنا وتقصيرنا.

إذا علم الإنسان أن الزمن عرض غير قارّ وأن ماضي الأيام لا يعود، حدثت عنده هِمة في معرفة الحقيقة، وأن الأزمان المتتالية التي تذهب وتجيء ينبغي أن تشغل بالخير لا بالشر.

إذا عرف الإنسان ذلك فإنه يبادر إلىٰ التوبة، فالتوبة أول خطوة عملية في الطريق إلىٰ الله، واليقظة أول خطوة فعلية يستطيع الإنسان أن يتحرك بموجبها؛ لأنه ما دام نائمًا فليس بمكلف، لابد أن يستيقظ فإذا استيقظ وانتبه فإنه يبادر بالعمل فما أول العمل؟ التوبة إلىٰ الله، فقال:

باب التوبة

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات، من آية: ١١]، إذن غير التائب ظالم؛ ظلم نفسه وظلم من حوله، وظلم كونه الذي يعيش فيه، فلابد من التوبة.

«**فأسقط اسم الظلم عن التائب**»، إذن فهو ليس بظالم بل هو مهتدٍ.

«**والتوبة لا تصح إلا بعد معرفة الذنب**»: فيجب أن تعلم مما تتوب. فلابد أن تستحضر الذنب وأن تراجع نفسك وتدرك تقصيرك وتحصر ذنبك.

وبَيَّن لك معرفة الذنب فقال: «**وهي: أن تنظر في الذنب إلىٰ ثلاثة أشياء**»- من ثلاثة جوانب:

١- «**إلىٰ انخلاعك عن العصمة حين إتيانه**»: عندما ارتكبت الذنب لم يكن هناك توفيق رباني لك بل أخرجك من دائرة العصمة إلىٰ دائرة الغواية؛ لأن الله لو عصمك ما أوقعك في هذا الذنب ولما استطعت أن تقع فيه، يقول رسول الله ﷺ: «**لا يَزْنِي الزاني حينَ يزني وهوَ مؤمنٌ، ولا يَشربُ الخمرَ حينَ يشربُ وهو مؤمنٌ، ولا يَسرِقُ حينَ يسرِقُ وهو مؤمنٌ، ولا يَنتَهِبُ نُهْبَةً يَرفعُ الناسُ إليه فيها أبصارَهم حينَ ينتَهِبُها وهو مؤمنٌ**»(١) فالذي يرتكب الذنب يرتكبه في حالة هو خارج فيها عن دائرة العصمة، خارج فيها عن دائرة الرحمة، خارج فيها عن دائرة نظر الله -بمعنىٰ هدايته- فالله حنَّان منَّان هادٍ لنوره. دائرة إذا وقف الإنسان في ضيائها ونورها عُصِمَ، وإن خرج عنها غوىَ، وهذا يؤدي إلىٰ معرفة أن الأمر كله بيد الله، ويؤدي إلىٰ

---

(١) أخرجه البخاري: ٢/ ٨٧٥، برقم (٢٤٣٢)، كتاب المظالم.

الخبوت لله، وأننا لا نأمن مكره ﷻ فنخاف منه على كل حال، ونتبرأ من حولنا وقوتنا فلا حول ولا قوة إلا بالله، لأنه لو أراد أن يدخلنا في عصمته حتى لا نقع في الذنب لفعل لكنه لم يفعل سبحانه ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وكيف نحصِّل هذا؟

تعلم أنك لا تستطيع بحولك وقوتك تحقيق ذلك فيدوم خوف العبد من ربه أبدًا، وهذا أول تدريب للعبد مع ربه: لا ملجأ منك إلا إليك، التسليم، الرضا، التوكل على الله.. «**إنْ لم يَكُنْ بِكَ عَلَيّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي**»[(١)] وفي النهاية يجمع ذلك كله قولك: لا حول ولا قوة إلا بالله، يعني تنفي الحول والقوة عن كل شيء وعن كل شخص وفي كل حال، وتُثبتها لرب العالمين وحده.

٢- «**فرحك عند الظفر به**»: عندما تظفر بالذنب تفرح، وأنت تعلم أنه ذنب، فانظر بم تفرح!! هذا يوقفك على حقيقة نفسك؛ يقول النبي ﷺ: «**أَلَا وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ تَسُوؤُهُ سَيِّئَتُهُ، وَتُسرُّهُ حَسَنَتُهُ فَهوَ مُؤْمِنٌ**»[(٢)]؛ فالفرح بالذنب أعظم من الذنب.

والذي يقع منه الذنب بين أمرين: إما أنه لا يعرف أن هذا ذنب، وإما أنه يستهين به، فإذا كان لا يعرف فهو جاهل، وإذا كان مستهينًا فهو فاجر، وكلها صفات نقص.. فنقول في دعائنا: «**اللّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي. وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي. وَمَا أَنتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي. اللّهُمَّ اغْفِرْ لِي جِدِّي وَهَزْلِي. وَخَطَئِي وعَمْدِي. وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي. اللّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ. وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ. وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي. أَنتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ. وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**»[(٣)].

---

(١) جزء من حديث أخرجه الطبراني في الدعاء: ص ٣١٥، والطبري في التاريخ: ١/ ٥٥٤، وكذا ابن هشام في السيرة: ١/٤٢٠، قال الهيثمي: رواه الطبراني وفيه ابن إسحاق وهو مُدَلِّس ثقة، وبقية رجاله ثقات.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه برقم (٥٤٨٩). آداب النوم.

(٣) متفق عليه، البخاري: ٥/٢٣٥٠، برقم (٦٠٣٥)، ومسلم: ٤/٢٠٨٧، برقم (٢٧١٩).

أول مراتب العودة والأوبة إلىٰ الله: ترك الذنب والانخلاع عنه، والتصميم علىٰ عدم العودة لمثله أبدًا؛ إذن أول شيء الاعتراف بالخطأ، أما إذا كنت لست معترفًا بالخطأ فستقول لنفسك: هل أنا فعلت ذنبًا؟! وهذا تسمعه من كثير من الناس ممن قست قلوبهم، فكلامه هذا ذنب، وفيه كِبر وهو لا يدري، فقد وصل إقراره بعدم الذنب إلىٰ الكذب الذي هو ذنب أكبر، هو كاذب؛ لأن الكذب هو مخالفة الواقع.

٣- **وقعودك على الإصرار عن تداركه مع يقينك بنظر الحق إليك:** إذن إذا نظرت هذا من نفسك فهنا تصمم علىٰ أن لا تصر عليه، وتداركه بالتوبة ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود، من آية: ١١٤]، وتشعر في قلبك بأن الحق ينظر إليك فتستحي منه؛ فإن الله أولىٰ أن يُستحيىٰ منه.

إذن التوبة لا تصح إلا بعد معرفة الذنب، بأنك قد ارتكبته عند انخلاعك عن العصمة، وألا تفرح إن ظفرت به، ولا تصر عليه، واحمد الله أن وفقك الله إلىٰ معرفته هذه المعرفة؛ لأنه قد أذن لك بذلك أن تكون تائبًا؛ لأنه لو عَمّاهُ عليك فإنك لا تتوب توبة نصوحًا. كان سيدنا عمر رضي الله عنه يقول: «**رَحِمَ اللهُ مَنْ أَهْدَىٰ إِلَيَّ عُيُوبِي**»[1] أي يقول لي: أنت فعلت (كذا) خطأ، حينئذ أبدأ في التوبة، فإذا لم ألتفت إلىٰ هذا فكيف أتوب؟! ومما أتوب؟! وكذلك بعد ما عرفته، لا يتأتىٰ لي الإصرار علىٰ تكراره مع معرفتي له، فأقعد عن الإصرار وأتخلىٰ عنه، وأتداركه ولا أقعد علىٰ الإصرار.

«**وشرائط التوبة ثلاثة أشياء: الندم والاعتذار والإقلاع**»:

كلمات بسيطة:

١- «**الندم**»: لابد عليك أن تندم، فأول التوبة تبدأ في الندم وتشعر بأنك مخطئ.

٢- «**والاعتذار**»: تستغفر الله وتعتذر إليه، أي: تطلب المغفرة.

---

(١) سنن الدارمي: ١/١٦٦.

٣- «والإقـلاع»: إذا استغفرت الله وأنـت قـائم علىٰ الـذنب فهـذا فيـه استهانة وكذب، فلابد من الإقلاع حتىٰ تكون التوبة نصوحًا... لابد من الإقلاع حتىٰ تكون صادقًا مع الله... لابد من الإقلاع عن الذنب حتىٰ يُغفر لك.

أهل الله يوصون بكثرة الاستغفار- والمُكثر من الاستغفار يسرع في تلاوته: أستغفر الله... أستغفر الله.. أستغفر الله.. أستغفر الله.. أستغفر الله.. أستغفر الله، ثم يتنبه أن هذا الاستغفار صدر منه بلا تأمل ولا استحضار ذنب ولا اعتذار، وقد يكون غافلًا عن الإقلاع عما يستغفر عنه، فيستغفرون من الاستغفار!

انتبه..؛ وصل الأمر بهم أنهم قد استغفروا من الاستغفار -ولكن من غير وسوسة- إنما هذا من قوة ومن تأمل وتدبر؛ فقليل العمل علىٰ تأمل وتدبر خيرٌ من كثيره علىٰ استعجال وعدم تفكر، فتقول: أستغفر الله العظيم، وتستحضرها في قلبك وتعيش فيها، وتعلم أنك تتوب الآن من ذنب، وأنك تقلع من معصية وتنخلع عنها، وتعتذر لله عما بدر منك.

وفي نهاية التوبة النسيان! فبعدما تتوب وتندم وتعتذر وتقلع عن الذنب؛ انس أنك فعلت ذنبا فتقول: الحمد لله صفحتي بيضاء! هذا يساعدك علىٰ ترك الذنب، وتصبح حريصًا علىٰ ألا تسوّدها مرة أخرىٰ، فالرجوع من العمرة.. الرجوع من الحج.. الخروج من رمضان.. الخروج من صلاة الجماعة.. من صلاة الجمعة... من الصلوات الخمس؛ كل هذا مكفرات للذنوب، فقال العلماء:

الندم في بداية التوبة، ونسيان الذنب في نهايتها..؛ فلا تتشكك في رحمة الله تعالىٰ بل توقن في قلبك وتعزم وتصر علىٰ أنه قد غفر لك، وما دام قد غفر لك تبدأ صفحة جديدة.

كم مرة تفعل ذلك؟ نبدأ صفحة جديدة مع الله ولو مائة مرة في اليوم، سيد المرسلين ﷺ الذي غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ورفعه الله مقامًا عليًا قال:

«إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلىٰ قَلْبِي، وَإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ كلَّ يَوْمٍ مِئَةَ مَرَّةٍ»[1]، استغفاره من جنس آخر غير استغفارنا، لكنه يعلمنا الاستغفار الذي يتواءم ويتناسب مع طبيعتنا ورتبتنا؛ فالقلب له بابان: باب مفتوح علىٰ الخلق وباب مفتوح علىٰ الحق ﷻ، الباب المفتوح علىٰ الحق تدخل منه الأنوار وتنكشف به الأسرار، والباب المفتوح علىٰ الخلق يتعامل به الإنسان مع الناس في مصالح الدنيا ومشاغلها، وسيد الخلق وإمام المرسلين ﷺ أُمر بتبليغ الدعوة من ربه وأرسله الله رحمة للعالمين وللناس كافة، فهو مأمور أن يتعامل مع الناس.. فكانت الأنوار تدخل من شدة العبادة والتعلق بالله فتُغلِق باب الخلق.. ريح من الأنوار يدخل فيغلق باب الخلق فلا يريد أن يرىٰ أحدًا، يريد أن يعتزل وهذا لا يجوز فهناك رسالة لابد أن يبلغها، فيستغفر الله ﷻ لانغلاق باب الخلق عنده حتىٰ يفتح.

أما نحن فالأغيار هي التي تغلق باب الحق، وننسىٰ فنتلهىٰ بالأشياء والأشخاص والأحوال والأحداث وننشغل بكل شيء دون الله؛ فنستغفر أيضًا حتىٰ تدخل الأنوار.. ويُفتح باب الحق.

سيدنا أبو الحسن الشاذلي -واسمه عليّ- استشكل الحديث، فمعنىٰ «يُغان» أن تأتي علىٰ القلب سحابة أو شيء من هذا القبيل!! فرأىٰ النبي ﷺ في المنام وقال له: يا مبارك غَين أنوار لا غَين أغيار..

غين أنوار حيث دخلت من باب الحق فأغلقت باب الخلق، ولكن لابد عليه ﷺ أن يبلغ رسالة ربه ويعامل الناس ويبيع ويشتري ويتزود ويحارب...

فالغَين نوعان: غَين أغيار؛ يغلق باب الحق، وغَين أنوار؛ يغلق باب الخلق، وفي كليهما نستغفر ربنا، لأن إغلاق أي منهما يُعْتَبَرُ نقصًا، ومن هذا سهو النبي ﷺ

---

(١) أخرجه مسلم: ٤/ ٢٠٧٥ برقم (٢٧٠٢) كتاب الذكر والدعاء، باب اسْتِحْبَابِ الِاسْتِغْفَارِ وَالِاسْتِكْثَارِ مِنْهُ.

فمن اشتغاله بربه وشدة تعلق قلبه به ﷺ سها في الصلاة -وهذا في الظاهر- حتىٰ يعلمنا عندما نسهو في الصلاة ماذا نفعل، قالوا:

يا سائلي عن رسول الله كيف سها * والسهو من كل قلب غافل لاه
قد غاب عن كل شيء سره فسها * عما سوىٰ الله فالتعظيم لله

يعني سيدنا رسول الله ﷺ وهو في الصلاة تعلق قلبه بربه حتىٰ نُسِّيَ عدد الركعات بأمر ربه وإرادته لنتعلم، ولكن نحن تتعلق قلوبنا بكل شيء سوىٰ الله، مع أنه أقرب إلينا من حبل الوريد.

إذا كان الذنب متعلقًا بحقوق العباد فلابد من رد المظالم إلىٰ أهلها؛ قطعة أرض، أموال... إلخ، وإذا اغتبت أحدًا فادعُ له بالخير، قل: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه، اللهم احشرنا وإياه مع المصطفين الأخيار، اللهم.. وهكذا، بعد الغيبة مباشرة، ليسدد الحساب مباشرة، فإذا غلط لسانك في أحد فأثْنِ عليه خيرًا واذكره به خصوصًا في المجلس الذي اغتبته فيه وادعُ له؛ لعل الله أن يرحمنا ويرحمه.

«وحقائق التوبة ثلاثة أشياء»:

«تعظيم الجناية»: فإذا فعلت ذنبًا تشعر أن هناك مصيبة قد وقعت فيها، ففي هذه الحالة ليس هناك كبائر وصغائر، والكبائر والصغائر عند الفقهاء لها ضوابط ومصنفات ووردت بها أحاديث، فلا بأس بذلك، أما من حيث الغفران فيقول أهل الله: إن الكبائر -في الغفران- كاللَّمَمِ، فلا كبيرة إذا واجهك بفضله، ولا صغيرة إلا عاملك بعدله، يقول ابن المعتز:

خَلِّ الذُّنوب صغيرها وكبيرها ذاك التُّقىٰ
وَاصْنَع كماشٍ فوقَ أرض الشَّوْكِ يَحْذَرُ مَا يَرَىٰ
لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً إِنَّ الْجِبَالَ مِنَ الْحَصَىٰ

صغيرة وصغيرة وصغيرة تُكَوِّنُ جبلًا، الصغيرة قد تصدر في ظنك فتهوي بك سبعين خريفًا في جهنم، الصغيرة قد تصدر منك فتكون كبيرة لأنه أحاطتها أشياء عكرت الدنيا، يقول رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً، يَرْفَعُ اللهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ**»[1].

إذن لكي تندم وتعتذر وتقلع وتصمم وتصر علىٰ ألا تعود لمثلها أبدًا- لابد أن تعظم الجناية، ولا تقول قد ورد في الأحاديث أن النظر يكفره الوضوء، وأنا توضأت كثيرًا وصليت كثيرًا، فكأنك تَمُنّ علىٰ ربك بدلًا من أن تدرك منته عليك، فتكون معكوسًا..!

فلابد للإنسان في أول توبته -إن كانت توبة صادقة- أن يعظم الذنب ولا يستهين به ولا يستحقره.

«**واتهام النفس في التوبة**»: تتوب وتقول: هل أنا صادق أم لا؟ وتتهم نفسك في التوبة إلىٰ أن يستقر قلبك علىٰ الصدق والعزم.

يعني يتوب ويعلم أنه في المشيئة؛ فإن شاء الله قَبِلَ توبته إن كانت صادقة، فيكون في تردد وفي خشية وفي وجل وفي خوف يدفعه لأن ينخلع بالكُلية عن الذنب، وأن يندم علىٰ فعله وأن يعزم علىٰ ألا يعود لمثلها أبدًا، وأن يبعد بنفسه عن الذنب هذا، ويستحقر هذا الذنب بمعنىٰ أنه يستقذره ويأباه ويندفع عنه، ولا يستهين به إنما يعظم الجناية ويتهم نفسه في التوبة.

«**وطلب إعذار الخليقة**»: لا شأن لك بذنوب غيرك، أترىٰ القذاة في عين أخيك وتترك جزع النخلة في عينك؟! لا تقل: أنا أفضل من الناس، فلان هذا أسوأ مني

(١) أخرجه البخاري، برقم (٦٣٣١)، كتاب الرقاق.

كثيرًا، وفلان يفعل كذا، لا تنظر إلا لمن هو أدون منك، لا شأن لك بخلق الله، هم معذورون، فالكبر الذي في قلبك يدخلك النار، والأشياء البسيطة التي فعلها هذا الذي تتعالىٰ عليه تكون من الصغائر يوم القيامة فتغفر له بالوضوء والصلاة ويدخل الجنة... هذه هي الحقيقة! فالقضية قضية القلوب، والقلب ما دام معوجًّا فلا فائدة فيه.

فاعذر عباد الله وظن فيهم خيرًا وظن في نفسك أنك أقلهم وأسوأهم، «وكن مهما قدموك ورا»، وإذا أثنىٰ عليك الناس فلا تغتر وقل: الله أعلم بالحال، معتقدًا في نفسك أنك أسوأ خلق الله، وأنك إما أن تكون منافقًا أو تكون مرائيًا.

فلا يحتقر الخلق ولا يتعالىٰ عليهم بتوبته بل يطلب العذر لهم، فإذا رأىٰ المبتلىٰ بالذنب فيقول: الحمد لله الذي عافانا مما ابتلىٰ به كثيرًا من عباده، ولا يتكبر عليهم بتوبته ولا بأن الله هداه بأن يستقذر هذه الخبائث وهذا الذنب ويمن عليه باستعظام الجناية، فالكل من الله ﷻ، ولذلك دائمًا التائب يطلب إعذار الخلق، فيقول: هو معذور فإن الله حكم عليه بهذا.

عسىٰ الله أن يفتح علينا فندخل حضرته لأن الحضرة القدسية ليست مكانًا ولكنها حال يصل إليه المؤمن عندما يخلص نيته لله، عندما يسلك لله غير ملتفت لأحد ويجعل الله مقصوده ويتبرأ من كل حول وقوة إلا حول الله وقوته.

إذن علينا بالسير، والطريق طويل، لكنه يسير علىٰ من يسره الله عليه.

ثم يتكلم عن السرائر لهذه الحقائق، وهي المرتبة الأعلىٰ التي هي أعمق من قضية استعظام الجناية واتهام النفس وطلب إعذار الخلق، حيث يخطو بنا المصنف رحمه الله تعالىٰ خطوة أخرىٰ في التوبة وفي تعميقها في النفس المؤمنة، فيقول:

«سرائر حقيقة التوبة ثلاثة أشياء»:

«تمييز الثقة من الغِرَّة»: يعني هل أنت واثق أو أنك مغرور؟ هناك فرق بين أن

تكون واثقًا بالله وبين أن تكون مجترئًا مغرورًا في نفسك علىٰ الله، الثقة بالله ممدوحة مطلوبة، فأنا أثق في الله أنه هو التواب الرحيم، وأنه هو العفو الغفور، وأنه قابل التوب ﷻ، وأنني بتوبتي وقد وفقني إليها فإنه قد قبلها مني؛ ثقةً في الله وليس غرورًا بالنفس، لكن الغرور أن تقول: هو لابد أن يقبلها مني..! فهذا كبر فوق كبر، جاء ليتوب فتكبر!

فينبغي أن تلتفت إلىٰ هذا المعنىٰ الدقيق الذي قد يغفل عنه كثيرٌ من الناس فيظن نفسه واثقًا في الله؛ وإذ به يرىٰ الحق علىٰ الله، والله ليس عليه واجب ولا حق، أنت الذي عليك الواجب وعليك الحق، والله ﷻ متفضل بتوبته من كل جهة، الله ﷻ هو صاحب الإفضال والإنعام، وأنت مجرد مخلوق يفعل الله فيك ما يشاء فلا حول ولا قوة إلا بالله، وهذا يلفتنا إلىٰ أننا ينبغي علينا ترك شهوات أنفسنا والقضاء عليها؛ ينبغي أن تكون واثقًا في الله، بأن تكون متذَلِلًا له، خاضعًا له راجيًا في وجهه الكريم، طامعًا في ثوابه وفي قبول توبته، لا أن ترىٰ حقًا عليه ﷻ أن يغفر لك.

«ونسيان الجناية»: من سرائر الحقائق أنك عظمت الجناية في أول التوبة، وأما في آخر التوبة فتنسىٰ الذنب.. هل تكون بذلك تضحك علىٰ نفسك! لا..؛ إنها معونة؛ فهذا يؤدي في النفس إلىٰ أن الإنسان يحافظ علىٰ بياض صفحته، يؤدي إلىٰ الثقة المحمودة بالنفس؛ حيث لا يريدك أن ترىٰ صحيفتك سوداء بعد توبتك وفيك نور الإيمان، وبركة التوبة ثقة في الله لا غرورًا من نفسك؛ فانتبه هنا؛ لأن النفس تيأس، وإذا رأت أنها أذنبت وأكثرت من الذنوب قد تصل إلىٰ درجة اليأس من روح الله والقنوط، واليأس من روح الله والقنوط من رحمته كفر؛ فقد يؤدي هذا إلىٰ المحذور؛ ولذلك نسيان الذنب رُكن من أركان سرائر حقيقة التوبة، هذا يساعدك علىٰ أنك لا تعود إليه أبدًا.

١ - **«والتوبة من التوبة أبدًا»**: من حقائق التوبة اتهام النفس فيها، فتسأل نفسك: هل توبتي هذه صادقة؟ فأتوب إلىٰ الله من التوبة غير الصادقة.

متىٰ تكون التوبة غير صادقة؟ تكون كذلك إذا رجعنا إلىٰ الذنب.. ولكن كلنا يفعل ذلك!

إذن التوبة فيها شيء -ولكن من غير وسواس- يا رب أستغفرك من استغفاري غير المخلص بالأمس؛ أنا قلت بسرعة: أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله.. بلساني ولم يكن قلبي حاضرًا، أستغفرك اللهم يا رب من عدم حضور قلبي في هذا الاستغفار.. أتوب إلىٰ الله من توبتي لتقصيري فيها؛ وأتوب من توبتي فإن ربي هو من تاب علي لأتوب؛ وهو التواب الرحيم.

أحد الصالحين استغفر الله عشرين سنة علىٰ قوله: الحمد لله! و«الحمد لله» ذِكْر والذِكْر من قبيل الطاعة، أيستغفر من الطاعة؟! لا، استغفر من عدم الإخلاص، قالوا له: احترقت بيوت الناس ولم يحترق بيتك، فقال: «الحمد لله» ونسي مصائب المسلمين، قال: الحمد لله الذي نجاني من الحريق الذي أحرق بيوت المسلمين، فتنبه من غفلته فاستغفر الله عشرين سنة من قوله: الحمد لله، فكيف نستغفر الله نحن؟! إلىٰ يوم القيامة.

من أين أتي الشيخ بهذا الكلام؟ من الكتاب أو السنة؛ فطريقنا هذا مُقَيَّد بالكتاب والسُنَّة؛ عرفه من عرفه وجهله من جهله.

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: **لأن التائب داخل في الجميع من قوله تعالىٰ:** ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [النور، من آية: ٣١]، ربنا يقول: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾ فكلنا داخلون في الخطاب، وهو متجدد دائمًا، فإذا قال أحدهم: أنا تبت بالأمس، نقول له: إن الآية تتلىٰ كل يوم فيجب عليك أن تجدد توبتك.

عرفنا حقيقة التوبة وعرفنا أسرار هذه الحقائق، ثم يتكلم الآن عن «**لطائف هذه الأسرار**» -واللطيفة أرق من السر وأعلىٰ- فهو يأخذنا خطوة خطوة، ولذلك المربي

لا يأخذ الناس مرة واحدة، ولكن درجة درجة، وكان رسول الله ﷺ يحب في الكلام أن يُثَلِّثَه؛ يعني يقوله ثلاثة.

«اللطيفة الأولىٰ: النظر إلىٰ الجناية والقضية فيعرف مراد الله تعالىٰ فيها إذ خلاه وإتيانها»، فينظر ما الحكمة في أن الله لم يعصمه من الذنب؟ فيفكر ويُقهَر تحت سلطان الله -فهو ﷻ لا يقضي أمرًا إلا ويكون له حكمة- فيشعر المؤمن حينئذ أن الله كسَرَ نفسَه، فهو يذكر ويتلو ويقوم الليل وبدأ يغترّ، فأوقعه الله ﷻ في الذنب، وهذا الذنب سيكون خيرًا علىٰ صاحبه من كثير من عبادته؛ لأنه سيدفعه إلىٰ توبة نصوح وإلىٰ ذل وانكسار لله خير من الكبر الذي قد يتولد من الطاعة، فهو لابد أن يعلم أن ربنا كريم وأنه لما خلاه مع هذا الذنب كسر نفسه، وإن كسر النفس هذا له درجته يوم القيامة خير من افتخاره وتعاليه بالطاعة؛ «**وَلاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرِيَاءَ**»[1]؛ فَرُبَّ[2] معصية أورثت ذلًا خير من طاعة أورثت كِبْرًا.

المعصية أسوأ من الطاعة والطاعة خير من المعصية، لكن الطاعة لابد أن تولد انكسارًا فإن ولّدت كبرًا فعدم وجودها أفضل، والمعصية كريهة ولابد أن نتوب منها لكن إذا تبنا منها فولدت عندنا انكسارًا وذلًا لله فيا مرحبًا بها، ليس حلاوة المعصية لكن حلاوة الذِلة والانكسار لله بدلًا من الكِبر والطغيان.

إذن الإنسان الذي فعل ذنبًا ينبغي عليه أن يكون واعيًا ولا يعترض علىٰ ربه ويقول: يا رب لِمَ أوقعتني في هذا الذنب؟! ولكن عليه أن يرضىٰ ويسلم ويجعل هذا الذنب يتحول إلىٰ حسنة ﴿ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍۗ ﴾ [الفرقان، من آية: ٧٠]، هي سيئة -لا أحد يختلف فيها أنها سيئة- لكن بالذل والانكسار الذي تولد عنها يصيرها المؤمن إلىٰ حسنة، فمن الذي حكم بالمعصية عليه؟ ربنا، وربنا لا يصدر منه

---

(١) أخرجه مسلم، برقم (٢٢٦)، كتاب الإيمان.

(٢) رُبَّ: للتقليل.

إلا الخير ﷻ حتىٰ ما كتب علينا من معاصي إن فهمت مراده، فإن حرمك من هذا الفهم يا ويلك ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم:٤٤-٤٥] يدخل في المعصية لا يخلُص منها.. لكن الأول دخل في المعصية ففهم مراد الله أنه أراد بذلك أن يكسر نفسه بدلًا من التكبر.

«**فإن الله ﷻ إنما يُخلي العبد والذنب لأحد معنيين..**

أحدهما: أن يعرف عِزته في قضائه»: يقول: أنا أعمل هذا الذنب!! أنا!! نعم أنت عملته أيها العبد الضعيف، فيستشعر بأن الله ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج، آية: ١٦]، وأنه ﷻ له العِزّة والجبروت.

«**وبِرَّهُ في ستره**»: لم يُطلِع علىٰ معصيتك أحدًا غيره فسترك -وهذه مزية- فعليك أن تستحي ولا تفعله مرة أخرىٰ وتكون فرحًا بربك أنه سترك، فكان من الممكن أن يفضحك فضيحة عظيمة يتحدث بها الخلق من حولك لكنه سترك، فتشعر بعزته وتشعر بمِنَّتِه.

«**وحِلمه في إمهال راكبه**»: عملت الذنب أكثر من مرة وكان حليمًا معك، وكان من الممكن أن يخسف بك الأرض، ولكنه سبحانه أمهلك مرة واثنين وثلاثة.

إذن فقد عرفت أنه هو الستير الحليم وأنه هو العزيز الحكيم؛ سيدنا عمر رضي الله عنه كان بصيرًا ملهمًا، قال فيه النبي ﷺ: «**لَقَدْ كَانَ فِيمَا قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ مُحَدَّثُونَ، فَإِنْ يَكُ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَإِنَّهُ عُمَرُ**»[1] وفِي رِوَايَة التِّرْمِذِيّ عَنْ بَعْض أَصْحَاب اِبْن عُيَيْنَة

---

(١) متفق عليه، البخاري: ٣/١٣٤٩، برقم (٣٤٨٦) من حديث أبي هريرة. مسلم: ٤/١٨٦٤، برقم (٢٣٩٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(مُحدَّثونَ) بِفَتْح الدَّال جَمْع مُحدَّث، مُلْهَم وَهُوَ مَنْ أُلْقِيَ فِي رَوعه شَيْء مِنْ قِبَل الْمَلأ الْأَعْلَىٰ فَيَكُون كَالَّذِي حَدَّثَهُ غَيْره بِهِ، وَقِيلَ: مَنْ يَجْرِي الصَّوَاب عَلَىٰ لِسَانه مِنْ غَيْر قَصْد، وَقِيلَ: مُكَلَّم أَيْ تُكَلِّمهُ الْمَلَائِكَة بِغَيْرِ نُبُوَّة. انظر: فتح الباري: ٧/ ٥٠.

«مُحَدَّثُونَ يَعْنِي مُفَهَّمُونَ»، أمر ﷺ بقطع يد سارق فجاءت أمه تبكي وتقول: هذه أول سرقة سرقها فاعف عنه. فقال: كذبت إن الله لا يؤاخذ عبده في أول مرة[1]، وحُمِلَ إِلَىٰ عُمَرَ ﷺ رَجُلٌ زَنَى، فَقَالَ: وَاللهِ مَا زَنَيْتُ قَبلَ هَذَا، فَقَالَ عُمَرُ: كَذَبْتَ إِنَّ اللهَ لَا يَفْضَحُ عَبْدَهُ بِأَوَّلِ مَعْصِيَةٍ[2].

الحقائق منكشفة أمامه، فهو يعلم من يعبد ويعلم كرمه وسعته وستره.

إذن عندما يصدر الذنب منك وتُستَر، فانتبه! فكان من الممكن علىٰ أقل سبب أن تفضح فضيحة شديدة.

«**وكرمه في قبول المعذرة منه**»: وفقك للتوبة وقَبِلَ عُذرك وعفي عنك، ويتضح ذلك من توفيقه إياك في العبادة؛ فتجد نفسك انتظمت في الصلاة.. انتظمت في القراءة.. انتظمت في الذكر.. انتظمت في فعل الخير.. انتظمت في الصيام.. كان ذلك كله صعبًا عليك ثم أصبح أمرًا سهلًا وبدأت الأمور تنتظم معك، تعرف أنه قد رضي الله عنك وقَبِلَ توبتك.

«**وفضله في معرفته**»: فقد بدأت تعرف ربك، وهذه نفسها مِنَّة ثانية أنك تعرف عزته وتعرف ستره وتعرف حلمه وتعرف عفوه.

«**والثاني: ليقيم على العبد حُجَّة عدله**»: لكي تأتي يوم القيامة ويحاسبك: عملت ذنب كذا وكذا؟ وتقول: نعم عملته، فيعاقبه إن أراد علىٰ ذنبه بحجته.

بعدما يعرف المؤمن الذي يريد التوبة مراد الله، من أنه قد أُبتلي بهذا؛ فَرُبَّ ذنب يورث ندمًا يكون خيرًا من طاعة تورث كبرًا، فيكون مخبتًا لله خاضعًا له ﷻ راضيًا بقضائه مشتاقًا للتوبة وللسعي إلىٰ الانخلاع منها والسلوك في طريق الله ﷻ

---

(١) انظر: تفسير النسفي: ١/٢٤٧.

(٢) الحاوي، للماوردي: ١١/١٢٤.

ويعرف مراد الله، عندما يستر عليه يعرف حنانه ومَنّه ﷻ، ويعرف مراد الله من أنه قد أقام الحُجَّة عليه إذا ما أراد عقابه؛ فإن الله ﷻ لا يظلم مثقال ذرة ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف، من آية: ٤٩].

«**اللطيفة الثانية: أن يعلم أن نظر البصير الصادق في سيئاته لَـمْ يُبْقِ له حسنة بحال، لأنه يسير بين مشاهدة المنة وتطلب عيب النفس والعمل**» يعني: أن التائب إلىٰ الله من لطائف أسراره أن يعلم أن العمل إنما هو من عند الله، ويرضىٰ بقضاء الله فيه حتىٰ يبدأ صفحة جديدة مع الله؛ فإنه قد يرىٰ في المعصية أنها وما دامت قد قُدِّرت عليه أنها خير!

وهنا مسألة دقيقة.. المعصية في ذاتها لا يمكن أن تكون خيرًا، فالمعصية نهىٰ عنها ربنا، والمعصية لابد عليك أن تباعد بينك وبينها بُعدَ ما بين المشرق والمغرب - هذا فيما سيكون من الأيام التالية.. أنت لم تفعل المعصية بعد- فالمعصية هذه من القاذورات وهي مصيبة وبلوىٰ، وليس فيها شيء يستحسن من أي جهة كانت وينبغي علينا أن ننخلع منها وأن نتركها، ولكن إذا وقعنا فيها وقُضي الأمر -نتكلم هنا علىٰ المعصية التي حدثت في الماضي وليست المعصية التي نهيت عن فعلها في المستقبل- إذا نظرنا إلىٰ هذه المعصية التي هي في الماضي ولِمَ كتبها الله عليّ؟ كتبها من أجل أن أتوب؛ إذن لا أقف عند قذارتها وقبحها- وهي قذرة وقبيحة في الحقيقة- إنما أنظر شيئًا وراء ذلك، وهو من لطائف الأسرار، أن التائب يرضىٰ عن ربه حتىٰ في هذا الوقت وهذا الحال؛ ابتلاني لأتوب فيجب عَلَيَّ التوبة، والتوبة يفرح بها ربنا ﷻ، وهذه حسنة سأفعلها الآن بعد تلك المصيبة التي وقعت فيها والتي اُبتليت بها، فأشرع فيما يفرح الرب ﷻ وهو التوبة، فإن الله يفرح بتوبة التائب إليه.

إذن البصير الصادق- لماذا هو بصير؟ لأنه يفكر ويرجع كل شيء إلىٰ الله ﷻ.

ولماذا هو صادق؟ لأنه لم يستحلّ المعصية ولم يستمرئها ولم يقل عن نفسه:

أنه قد جُبر عليها، ولا شيء فيها، أو أنها تستوي في الحُسن والقبح مع الطاعة وأنه لا بأس من المعصية كما أنه لا بأس من الطاعة، والله ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦].. لم يقل هذا وإلا ما كان صادقًا مع ربه ولا كان صادقًا مع نفسه، فهو «بصير» لأنه قد أدرك وفهم شيئًا دقيقًا يُشكل مثله على كثير من الناس، و«صادق» لأنه التزم بمراد الله وشرعه ﷻ.

«**واللطيفة الثالثة: أن مشاهدة العبد الحُكْمَ لم تدع له استحسان حسنة ولا استقباح سيئة لصعوده من جميع المعاني إلىٰ معنىٰ الحُكْم**»: عندما ينظر إلىٰ الحُكمِ الرباني والحكمة الربانية؛ فإنه يعلم أن الكل من عند الله، وأن الطاعة بالتوفيق، وأن المعصية بالابتلاء، وأنه في كليهما يجب عليه الرضا عن ربه، وأنه قد أمره الله عندما يبتلىٰ بالمعصية أن يتوب، وعندما يفعل الحسنة أن يشكر، وعندما يشكر فإنما هذا توفيق آخر من ربنا يحتاج إلىٰ شكر مكرر ودائم.

دائمًا وهو يتأمل ويقول إن المعصية قبيحة ولكن الله ﷻ كتبها عليه؛ إذن لابد من حكمة في كتب هذه المعصية عليه، وهو أنه أراد أن يقيم الحُجة عليّ وأراد أيضًا أن أتوب فيفرح بي، فتتحول بذلك -بعد السمو بالتفكر في حكم الحاكم- إلىٰ أمر حسن رغم أنها سيئة، وهذا لا يعني أن السيئة كالحسنة والحسنة كالسيئة فلا يقول بهذا إلا أهل الفسق والضلال؛ فالسيئة سيئة والحسنة حسنة، السيئة يعاقب عليها ربنا، والحسنة يثيب عليها ربنا ولكنه غفار.

الناس ثلاث درجات: عوام وخواص وخواص الخواص، ضربوا لهم مثلًا برجل جاء البحر فوقف علىٰ شاطئه، ورجل آخر خاض في البحر حتىٰ وصل الشاطئ الآخر المقابل، ورجلٌ ثالث ذهب ورجع، فإذا أتيت أنت الشاطئ وجدت رجلين يقفان علىٰ الشاطئ -والبون[1] بينهما عظيم- فأحدهما لم يركب البحر

---

(١) البَوْنُ والبُونُ مسافةُ ما بين الشيئين.

والآخر ذهب ورجع، وهناك ثالث لا تراه لأنه ذهب وما رجع، ولذلك قال أبو يزيد البسطامي[1] -وكان فيه جذبة-: خضنا بحرًا وقف على شاطئه الأنبياء. فظنوا أنه يتعالىٰ على الأنبياء! وهو كان رجلًا مجذوبًا يقول أشياء ظاهرها غير مقبول وحقيقتها لطيفة لا شيء فيها، «خضنا بحرًا وقف الأنبياء بشاطئه» قالوا: أي بعد ما ذهبوا ورجعوا، يعني هو ذهب وتاه في البحار يتمتع بها ويشاهد هنا وهناك، لكن الأنبياء -لكمال حالهم مع الله- ذهبوا ورجعوا، وهناك من لم يذهب ولم يعد وهم العوام.

وشبّهوا الأمر بالدائرة، فالدائرة لا تعرف بدايتها من نهايتها؛ فلو بدأنا من نقطة وجعلناها أسفل الصفحة فإنه كلما سرت كلما علوت، إلىٰ أن تصل إلىٰ نقطة النهاية فلو واصلت المسير نزلت، سبحان الله! تنزل وأنت مستمر في السير إلىٰ أن تصل إلىٰ نقطة النهاية، فإذا نزلت إلىٰ نقطة النهاية كانت هي عينها نقطة البداية، مثل الواقفين علىٰ الشاطئ، هذا علىٰ نقطة البداية لم يبدأ، وهذا علىٰ نقطة النهاية قد انتهىٰ، فأصبح هناك ثلاثة أشخاص: شخص لم يبدأ، وشخص فوق، وشخص في النهاية؛ فحال الأنبياء علىٰ الكمال، وحال الوسط علىٰ النقصان، وحال البداية علىٰ البداية، يعني لا فيه نقصان ولا كمال فإنه لم يَسِر بعد، ولذلك فإن كثيرًا من الناس يقارنون بين حال الأنبياء- وهو حال الكمال- وبين حال هذا الذي في الوسط، ويقولون: لم يكن الأنبياء هكذا، ويظنون أنفسهم -وهم لم يسيروا في الطريق إلىٰ الله تعالىٰ- أنهم كالأنبياء، فيدخل الكبر في قلوبهم والعياذ بالله، ودخول الكِبر في القلب لا دواء له؛ فقد قال رسول الله ﷺ: «**وَلاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ**

---

(١) هو: طيفور بن عيسىٰ، سلطان العارفين، شيخ الصوفية، له نبأ عجيب، وحال غريب، وهو من كبار مشايخ الرسالة، وقد نقلوا عن أبي يزيد أشياء الشك في صحتها عنه، مات أبو يزيد سنة إحدىٰ وستين ومائتين. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء: ١٣/٨٦، ميزان الاعتدال: ٢/ ٣٤٦، لسان الميزان: ٣/٢١٤، الأعلام: ٣/٢٣٥.

مِنْ كِبْرِيَاءَ»[1] حب الخردل أخف البذور، فالستة آلاف منه تساوي جرامًا!

إذن فكثير من الناس يتفاخر بعبادته، ويظن أنه عندما يفعل رسومًا قد فعلها سيدنا رسول الله ﷺ -وهي قطعًا من الخير- أنه قد سبق بها فينظر إلىٰ عمله ويستحسنه، ويرىٰ نفسه وأن له حولًا وقوة، وهو لا حول ولا قوة به ولا له.

توبة العامة لاستكثار الطاعة: العوام إذا قيل لأحدهم: تَيَقَّظْ. قال: كيف أتيقظ؟! يقال له: اعرف حقيقة الدنيا وأنها إلىٰ زوال، فأدرِكِ الأمر قبل الفوت وقبل الموت، فبدأ يتيقظ، قال: ثم ماذا أفعل؟ يقال له: تب إلىٰ الله، قال: ممَ أتوب؟! يقال له: تب من استكثارك لطاعتك، فأنت راضٍ عن نفسك تقول: أنا طوال النهار أصلي وأصوم وأسبح.. وتعدد لنفسك ومبسوط، ولكن المطلوب أن تستقل كل ذلك في جنب الله، واعلم أنه كما قال ﷺ: «**لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ**». قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**لاَ، وَلاَ أَنَا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ**»[2] ﷺ؛ فإذا كان هذا شأن سيد الكائنات وسيد الخلق أجمعين.. فما بالنا نحن!

لو قارن الله لك ما منحك من نِعَمٍ ومِنَنٍ مع ما تفعل لصارت النعم والمنن أكثر بكثير مما قد قدمت ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ ﴾ [النحل، من آية: ١٨]، ويتبقىٰ معك الحساب، «**مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ**»[3].. فَبِمَ تدخل الجنة؟! بمحض الفضل، فعليك ألا تستكثر الطاعة.

إذن توبة العوام يعني الذين لم يبدأوا في الطريق إنما هي لاستكثار الطاعة، أي يجب عليك أن تتوب من استكثار الطاعات، وهذا شيء صعب جدًا، وأحيانًا يستمر سنوات لكي تخرج هذا من قلبك، وهناك أناس غارقون في استكثار طاعاتها

---

(١) سبق تخريجه من رواية مسلم ص٧٣.
(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٣٢٠)، كتاب الرقاق.
(٣) أخرجه البخاري برقم (٦٣٨٩)، كتاب الرقاق.

ورؤيتها والفخر والاعتزاز بها، ويقول: أنا تقي.. أنا ما فعلت ذنبًا طول عمري، وفرحان..! ليس الفرح والانشراح الرباني، ولكنه فرحان من غروره بنفسه ومن رؤيته لحوله وقوته، **فإنه يدعو إلىٰ ثلاثة أشياء:**

استكثار الطاعة هذا يجعلك تقع في ثلاث مهلكات:

١- **إلىٰ جحود نعمة الستر والإمهال:** فيقول أحدهم: كلما أدعو الله يستجيب لي. إذن أنا عند الله شيء كبير جدًا، فهذا يهلكه هلاكًا لأنه غير شاعر بمِنَّة الستر في البلاوي التي يفعلها، ولا شاعر بمنة الإمهال أن الله لم يخسف به الأرض حتىٰ لمقولته هذه، ليس بصيرًا وصادقًا فالبصير الصادق هو العارف.. عارف بالله فلا يأمن مكره.. عارف بالله فيعظم منته.. عارف بالله فلا يجحد فضله.

٢- **ورؤية الحق علىٰ الله تعالىٰ:** فتجده يخاطبَ ربه قائلًا: أنا صليت لِمَ لا تستجيب دعائي؟! ظن أن له حقًا علىٰ الله، والله ليس عليه حق بل هو سبحانه متفضل من كل جانب.

٣- **والاستغناء الذي هو عين الجبروت والتوثُّب علىٰ الله تعالىٰ:** فهو يظن أنه ليس فقيرًا إلىٰ الله، قلبه غير ساجد لله، أهل الله يقولون: إذا سجد قلبك لربك لا يقوم أبدًا، يسجد وينتهي الأمر -فاللهم أسْجِدْ قلوبنا إليك- فكل الكائنات ساجدة له ﷻ. فالقلب محل اللطيفة -كالعقل محله المخ- القلب الجسم الصنوبري الذي يَطَّلِع عليه الأطباء عندما يفتحونه ويجدون فيه شرايين وأوردة ودمًا، هذا المحل للقلب الذي هو لطيفة من لطائف الإنسان التي جعلها ربنا خمس لطائف: القلب والروح والسر والخفي والأخفىٰ، فالقلب هذا لطيفة من لطائف مظهر وإظهار تجليات الله ﷻ علىٰ الإنسان.. محل للترقي في معرفة الله.

والتوثب علىٰ الله بالمنازعة فيما ليس لك..أنت تدخل في دائرة الجبروت، والجبروت ليس لك.. الجبروت إنما هو لله؛ وفي الحديث القدسي: «**قَالَ اللهُ ﷻ:**

الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعِزَّةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا أُلْقِيهِ فِي النَّارِ»[1].

افهم، استيقظ، تب، ارجع، لا تَفْتَرِ علىٰ الله تعالىٰ.. كأنه يصرخ فيك ويحجزك عن النار.

وتوبة الأوساط: وهم الخاصة الذين ذهبوا إلىٰ الشاطئ الآخر ولم يرجعوا.

من استقلال المعصية: فقد يقول أحدهم: إن الله ﷻ كتب عليّ هذه المعصية.. فماذا أفعل؟! قد يحصل للخاصة هذا الخاطر فيحدث له استهانة بالمعصية؛ يعني يظن أن هذه المعصية بسيطة فالله ﷻ هو الذي كتبها عليّ ولا دخل لي، وهذا الأمر يحتاج إلىٰ توبة، ولكن لابد في بداية التوبة أن تستعظم المعصية ثم تنساها حتىٰ تستطيع أن تكمل طريقك، لكن في البداية لابد أن تستعظمها، فالخاصة تحصل لهم أحوال لأنهم ملتفتون لرحمة الله والرجاء في وجهه والإيمان بقدره..؛ فيستقلون المعصية؛ يقولون: ربنا الذي كتبها عليّ ماذا أفعل؟! نقول له: لا تجعل قلبك يتراخىٰ إلىٰ هذا الحد، نعم أنت تطمع في وجه الله وفي كرمه وفي عفوه ومغفرته، ولكن وازن الأمور.. وازن بين الخوف والرجاء حتىٰ لا تتجرأ علىٰ المعصية باستقلالها، لأنك لو استقللت المعصية تجد نفسك تشتهيها وتستهين بها وفي هذا عدوان علىٰ شرع الله؛ قال: **«وهو عين الجرأة والمبارزة ومحض التزيين بالحمية والاسترسال للقطيعة»**.

توبة الأوساط من استقلال المعصية، واستقلال المعصية والاستهانة بها هو عين الجرأة على الله ونواهيه، ومن فعل ذلك فقد بارز الله وتعرض لسخطه، لأنه يجهر بما نهىٰ الله عنه ولا يستعظمه ظنًا منه أن هذا أمر هين في صفة عفو الله ﷻ في حين أنه محض التزين من النفس والهوىٰ والشيطان، وأساسه الرضا عن النفس، فلا يزال كذلك حتىٰ يقطع ما بينه وبين ربه وهو لا يدري، فالخواص يلتفتون إلىٰ هذا المعنىٰ ويتوبون منه وإذا وقع أحدهم في الذنب فإنه يبادر بالعودة إلى ربه تائبًا.

---

(١) أخرجه أحمد، برقم (٧٣٥٥) من حديث أبي هريرة.

«**وتوبة الخواص من تضييع الوقت**»: أي خواص الخواص، وهم من ذهبوا إلىٰ الشاطئ الآخر ورجعوا مرة ثانية؛ فلا يدعي أحد أنه قد وصل لرتبة قد رفعت عنه التكاليف فيها.

عن عائشة قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ إِذَا صَلَّىٰ قَامَ حَتَّىٰ تَفَطَّرَ رِجْلَاهُ. قَالَتْ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَتَصْنَعُ هذَا، وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ فَقَالَ: «**يَا عَائِشَةُ أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**»[1].

لا شيء عندنا في الشريعة يسمىٰ سقوط التكاليف، فلو سقطت لكان الأولىٰ بذلك المثل الأعلىٰ والأسوة العليا ﷺ، بل كان الأمر علىٰ غير ذلك، وكان كلما ترقىٰ مع ربه ﷺ ازداد عبادة له حتى تعلق قلبه به في سهوه وفي إدراكه، وفي نومه وفي يقظته... وفي كل شيء، فكانت تنام عيناه ولا ينام قلبه كما وردفي الحديث الصحيح أنه قال ﷺ: «**تَنَامُ عَيْنِي وَلاَ يَنَامُ قَلْبِي**»[2]، وكان سهوه ﷺ في الصلاة بناءً على أن قلبه قد انشغل بالله فانشغل عن حركات الصلاة، فلا يدري كم صلىٰ لانشغال قلبه به ﷻ، ولم يوقف لا صلاة ولا صيامًا ولا قيام ليل ولا زكاة، وكان ﷺ يخزن لأهله تموين سنة[3]، فيأتي الفقير فيعطي له، ويأتيه آخر فيعطي له وهكذا..؛ فلا ينقضي الشهر إلا وينتهي ما ادخره ﷺ للسنة، ويظلون طوال السنة بلا شيء؛ لأن قلبه ﷺ كان معلقًا بالله، كان يُطَمْئِنُ الناس حوله أما هو ﷺ فقد وصل إلىٰ الغاية الكبرىٰ، فعرفنا من ذلك أن توبة الخواص إنما تكون من تضييع الأوقات، والوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك.

---

(١) متفق عليه، البخاري: ٣٨٠/١ برقم (١٠٧٨)، ومسلم: ٢١٧١/٤ برقم (٢٨١٩).

(٢) متفق عليه، البخاري: ٣٨٥/١، برقم (١٠٩٦) واللفظ له، ومسلم: ٥٠٩/١، برقم (٧٣٨).

(٣) متفق عليه: ونصه: «..كَانَ يُنْفِقُ عَلَىٰ أَهْلِهِ نَفَقَةَ سَنَتِهِ، ثُمَّ يَجْعَلُ مَا بَقِيَ فِي السِّلَاحِ وَالْكُرَاعِ، عُدَّةً فِي سَبِيلِ اللهِ». البخاري: ٣/ ١٠٦٣، برقم (٢٧٤٨) ومسلم: ١٣٧٦/٣، برقم (١٧٥٧).

فإنه -أي تضييع الوقت- «**يدعو إلىٰ درك النقيصة، ويطفئ نور المراقبة، ويكدر عين الصحبة.**

ولا يتم مقام التوبة إلا بالانتهاء إلىٰ التوبة مما دون الحق تعالى»؛ يعني تتوب من الخلق، يعني قلبك لا يتعلق إلا بالله.. طلبًا ورجاءً وخوفًا.. وكل شأنك؛ وهذا يسير علىٰ من يسره الله عليه، وعسير علىٰ من لم ييسره الله عليه ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:٤٥-٤٦].

ثم من رؤية تلك التوبة، ثم التوبة من رؤية تلك العلة: يعني تتوب من الخلق وتذهب إلىٰ الحق بكليتك ثم تتوب من أنك تبت! فأنت تظن أن هذه التوبة أنت الذي عملتها؛ فتتوب من هذا المعنىٰ؛ فالله هو الذي خلقها فيك، ثم بعد ذلك تتوب من أن الله هو الذي خلقها فيك، حذراً أن يكون معناها أن هناك جبر فتتوب من الجبر، متوكلًا علىٰ الله حق توكله بالتسليم والرضا المحض.

هذا معنىٰ التوبة وهو أول الدرجات سيرًا بعد اليقظة ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [الجمعة، من آية: ٤]، أحدهم يفتح عليه في ثلاثة أيام آخر يفتح عليه في ثلاثين سنة، والرضا والتسليم مع الكل، والكل من المسلمين المحكوم لهم بالنجاة يوم القيامة، وإنما من عَبَدَ ربه طمعًا في دنيا يحصلها أو في آخرة يريدها- ليس كمن عبد ربه حبًا فيه تعالى!

بَابُ

الْمُحَاسَبَةِ

وإنما يُسْلَكُ طريق المحاسبة بعد العزيمة على عقد التوبة

أركان العزيمة

(١) أن تقيس بين نعمته وجنايتك.

وهذا يشق على من ليس له ثلاثة:

١- نور الحكمة.

٢- سوء الظن بالنفس.

٣- تمييز النعمة من الفتنة.

(٢) أن تميِّز ما للحق عليك مما لك أو منك.

١- أن الجناية عليك حجة.

٢- والطاعة عليك مِنّة.

٣- والحكم عليك حجة، ما هو لك معذرة.

(٣)

أن تعرف أن كل طاعة رضيتها منك فهي عليك، وكل معصية عيَّرت بها أخاك فهي إليك. فلا تضع ميزان وقتك من يدك.

بين يدي المحاسبة

بعدما بيّناه أول الأمر ولابد من اليقظة؛ لأن النائم لا تكليف عليه فإذا خاطبت النائم بشيء فقد خاطبت المحال وخطاب المحال محال فلابد من اليقظة؛ لأن تكليف المحال عبث، كيف تخاطب نائمًا وتقول له افعل وافعل وافعل وهو نائم؟! فلابد أولا من اليقظة.

واليقظة تتأتىٰ بمعرفة حقيقة الدنيا وأنها فانية إلىٰ زوال، وأن حقيقتها أنها مخلوقه لله رب العالمين وحقيقتها أنها من خلق الله في خيرها وشرها فالله ﷻ ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج، آية: ١٦]، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، والله هو صاحب الحول والقوة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فاليقظة هي أن تعرف معنى هذه الكلمة التي هي كنز من الكنوز مخبوءة تحت عرش الرحمن: (لا حول ولا قوة) أبدًا ونفيًا تامًا من كل أحد في الكون سواء أكان بشرًا أو ملكًا.. سواء كان نبيًا أو وليًا.. سواءٌ كان مؤمنًا أو فاجرًا.. (إلا بالله) ﷻ فإنه كان قبل أن يكون الكون، وهو الآن علىٰ ما عليه كان، وكل شيء هالك وفانٍ إلا وجهه ﷻ هو الذي يبقىٰ فهو الباقي، فالله ﷻ هو الحقيقة الوحيدة وهو الواجب الوحيد وما سوىٰ ذلك إنما هو بأمره، هذه هي اليقظة، إذا فهمت ذلك كلمناك، وإذا لم تفهم أيقظناك، وإذا لم تستيقظ تركناك؛ لأنه لا فائدة من الكلام معك إذا لم تعلم هذه الحقيقة الأولى المبدئية التي هي باب الخير كله.

ثم بعد ذلك وإذا عرفت الحقيقة من منزلة اليقظة وكيف تصل إليها وتقاوم نفسك من أجلها فاستيقظت، فأول ما تفعله هو أن تبادر بالتوبة إلىٰ الله بالامتناع من دائرة ما أنت فيه من غفلة ومنْ ذنوب ومن كبر ومن تقصير إلىٰ دائرة اليقظة والنور..

إلىٰ الله ﷻ الذي يفعل ما يشاء وما يريد، فتنخلع بالكلية؛ والانخلاع هو حقيقة التوبة.

والتوبة ليست شيئًا ينتهي بل هي شيء تفعله في كل درجاتك ومقاماتك مع الله، فالعوام يتوبون، والخواص يتوبون، وخواص الخواص يتوبون والنبي ﷺ - وهو الأسوة الحسنة وغاية المراد من رب العباد وهو المصطفىٰ الكريم وهو المجتبىٰ ﷺ والمثل الأعلىٰ والإنسان الكامل- يقول: «**وَاللهِ إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً**»(١).

إذن فالتوبة في حد ذاتها عبادة لا يخلو منها أحد، والتوبة مقام، والتوبة بداية، لكنها ليست بداية ككل البدايات تنتهي بل إنها بداية لتستمر، وعلىٰ ذلك يتوب الإنسان كل يوم ويستغفر ربه كل يوم، فإنه لابد عليه بعد استيقاظه من إحداث التوبة.

لا تستكثر طاعتك ولا تتكبر بها، ولا تتعال علىٰ أخيك إذا ابتلاه الله ﷻ بالذنب ولا تحقرن من المعروف شيئًا، ولا تحقر أخاك الذي أذنب، ولا ترضىٰ بالذنب، واكره هذا الذنب ولا تكره صاحبه؛ فهناك فرق بين الذنب والمذنب، وبين الكفر والكافر، وبين الطاعة والطائع، فرُبَّ طائع ليس له من طاعته شيء، يأتي يوم القيامة القارئ فيكون أول من يدخل النار:

فعَالِمٌ بِعِلْمِهِ لَمْ يَعْمَلَنْ ❊ مُعذَّبٌ مِن قبلِ عُبّاد الوثَن(٢)

إذن فهذا الرجل الذي كان عالمًا قارئًا يقال له يوم القيامة: «**كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ. وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ. فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّىٰ أُلْقِيَ فِي النَّارِ**»، والشهيد يقال له: «**كَذَبْتَ. وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ**

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦١٦٢) كتاب الدعوات.

(٢) هذه من «الزُّبَد» لابن رسلان، وهي منظومة في الفقه الشافعي.

لأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ. فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّىٰ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»، والمتصدق يقال له: «**وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ...**»[1].

إذن رُبَّ طائع ليس له نصيب من طاعته، ويقول رسول الله ﷺ: «**رُبَّ قَائِمٍ حَظُّهُ من قيامِهِ السَّهَرُ، ورُبَّ صائِمٍ حَظُّهُ من صيامِهِ الجوعُ والعَطَش**»[2]، لأنه لم يكن خالصًا لوجه الله تعالىٰ: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَىٰ..**»[3].

بعد اليقظة والتوبة علىٰ ما بين لك، أمر العباد أن يتوجهوا وأن يفروا إلىٰ الله، وأن ينخلعوا بالكلية من دائرة المعصية إلىٰ دائرة طاعة الرحمن، فكان الباب الثالث من العشر الأُوَل..؛ فقال:

---

(١) من حديث أخرجه مسلم: ٣/ ١٥١٣، برقم (١٩٠٥) كتاب الإمارة، باب مَنْ قَاتَلَ لِلرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ اسْتَحَقَّ النَّارَ.

(٢) أخرجه أحمد: ٣٧٣/٢، برقم (٨٨٤٣)، وابن حبان: ٢٥٧/٨، برقم (٣٤٨١)، والحاكم: ٥٩٦/١، برقم (١٥٧١) وقال: صحيح علىٰ شرط البخاري.

(٣) متفق عليه، البخاري: ٣/١، برقم (١)، ومسلم: ١٥١٥/٣، برقم (١٩٠٧).

باب المحاسبة

«قال الله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍۖ ﴾ [الحشر، من آية: ١٨]، إذا نظرت (لغدٍ) فإنك سوف تحاسب نفسك: ما الذي قدمته لله؟ عن أَنَس بن مَالِكٍ أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَتَىٰ السَّاعَةُ؟ قَالَ: «مَا قَدَّمْتَ لَهَا؟»[1]...؛ إذن هناك محاسبة.

﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ ﴾ النظر هو حقيقة المحاسبة ﴿ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍۖ ﴾ علىٰ أية حالة تعود إلىٰ ربك وتلقاه؟ يقول أهل الله من السادة الصوفية: «مِلاكُ الأمر كله أن تُجَهِّزَ حُجَّتَكَ لله غدًا» فالناس يسألون أهل الله ويقولون: لا نريد أوامر كثيرة؛ صلِّ وصُمْ واذكر واتلُ وافعل كذا وكذا، نحن نريد مفاتيح نسير عليها.

قالوا: هذه المفاتيح تتمثل في أنك كلما تُقْدِمُ علىٰ عمل تُفَكِّرُ: ماذا ستقول لله تعالىٰ غدًا؟ فإذا كنت مؤمنًا بالله تعالىٰ ومؤمنًا بأن هناك يومًا آخر، ومؤمنًا أن في هذا اليوم الآخر حساب وثواب وعقاب، فإنك سوف تحاسب نفسك قبل العمل وتنظر إذا ما كان هذا يُرضي الله أو لا يرضيه، ومن هنا تأتي الحاجة إلىٰ الفقه؛ الفقه مهم لأنه الحكمة؛ لأنه الذي يبين للناس معالم الحلال والحرام ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء، من آية: ٧]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ ﴾ [النساء، من آية: ٥٩]، فأولوا الأمر هم الذين تَوَلَّواْ استنباط الأحكام الشرعية من الأدلة التفصيلية من الكتاب والسُنَّة، فالطاعة هنا تكون لله، وتكون لرسول الله ﷺ،

(١) أخرجه أحمد برقم (١٢٧٥٥) من حديث أنس، والحديث بلفظ: «مَا أَعْدَدْتَ لَهَا» متفق عليه.

وتكون لمن نسب أحكام الله مُوَقِّعِين عن الله[1]، فأُولوا الأمر هم العلماء، وهذه هي الحكمة، فالمحاسبة تحتاج إلىٰ حكمة، والحكمة تكون بالعلم.

إذن العلم مهم، وهو إما بالتعلم وإما بالسؤال.. إذا لم تكن عالمًا فسَل العالِم.

«**وإنما يُسْلَكُ طريقُ المحاسبة بعد العزيمة على عقد التوبة**»: التوبة التي قدمناها لابد أن نعاهد الله عليها ونوقع عقدًا بيننا وبينه ﷻ، والله أمرنا في القرآن فقال: ﴿ **أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ** ﴾ [المائدة، من آية: ١] أمْر..؛ فلابد من الوفاء بعهد الله ﴿ **وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا** ﴾ [الأحزاب، من آية: ١٥]، ﴿ **وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ** ﴾ [الأنعام، من آية: ١٥٢].

«**والعزيمة لها ثلاثة أركان: أحدها: أن تقيس بين نعمته وجنايتك**»: يعني تفكر وتحاسب نفسك، وتقول: ما هي النعم التي أنعم الله عليَّ بها؟ وكم هي؟ لو كنت موفقًا لشرح الله صدرك وأظهر لك مِنَّته عليك، ولو كنت غير موفق أُغلقت عليك بصيرتك ثم لا تجد لله عليك مِنَّة وتشتكي في نفسك وتصبح مطموس البصيرة، لكنه لو وفقك الله لرأيت نِعَمه عليك تترىٰ، لا تعد ولا تحصىٰ في كل نفس؛ عقلك نعمة، أذناك نعمة، عيناك نعمة، فإن أخذها الله منك فهي نعمة ما بعدها نعمة. قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله ﷻ: مَنْ أَذْهَبْتُ حَبِيبَتَيْهِ فَصَبَرَ وَاحْتَسَبَ لَمْ أَرْضَ لَهُ ثَوَابًا دُونَ الجَنَّةِ**»[2]؛ مضمون له الجنة.

تنفسك نعمة، رأيت أحد الطغاة وهو ممسك بوردة يشمها في قفصه وهم يحاكمونه، فسألت: ما شأنه؟ قالوا لي: إنه يتقطع مع كل نفس يتنفسه- كأن بداخله سكاكين تقطع فيه عندما يدخل أو يخرج النفَس، فيُسَلِّي نفسه بالوردة لكي يخفف الألم قليلًا!

---

(١) لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتاب اسمه: (إعلام المُوقِّعين عن رب العالمين).

(٢) سبق تخريجه، ص: ٤٤.

إذن نحن في نعمة مستمرة؛ فلو فتح الله عليك لأراك مَنَّته عليك، ولو أغلق بصيرتك لنسيت نعمته..

«**وهذا يشُق على من ليس له ثلاثة أشياء**»، هناك ثلاثة أشياء تساعدك علىٰ فتح البصيرة ورؤية النعمة ورؤية الجناية التي فعلتها في قِبَل الله، فهو ﷻ يمن عليك بالمنن والمنح والنعم، وأنت تقابله بالمعصية والفرار والطغيان والنسيان والقسوة.

١ - «**نور الحكمة**»: وهو الفقه سواء بالعلم أو بالسؤال، فإذا كنت أعلم الحلال والحرام يصبح عندي عقلية فارقة بين ما يجوز أن أفعله وبين ما لا يجوز، لكن لو لم أعلم الحلال والحرام أصبح تائها لا أدري ما الذي يرضي الله عنه وما لا يرضىٰ عنه، فقد أظن أني علىٰ طاعة وأنا غارق في المعصية؛ سمعت من الناس كثيرًا يقولون: أنا عمري ما فعلت شيئًا سيئًا، قلت له: أبدًا؟ قال لي: أبدًا، فسألته: هل تصلي؟ قال: أصلي الجمعة!

كنت ظننت أنه يصلي جماعة في المسجد في الصف الأول لم يترك قفا الإمام أربعين سنة، اتضح أنه يصلي الجمعة فقط! وهو يظن أنه لم يفعل معصية في حياته والنبي ﷺ يقول: «**الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ الصَّلاَةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ**»[1]، يعني ذنب عظيم وليس كفرًا يعني أنه خرج عن الملة ولكنه ذنب أخو الكفر، وبالرغم من ذلك فإنه لا يراه ذنبًا أصلًا.

وآخر يقول لي: لا أدري لِمَ ابتلاني الله بهذه الابتلاءات؟! بالرغم من أنني سليم مائة في المائة، وأبحث في نفسي فلا أجد شيئًا خطأً! فهذا مخذول وهو في مصيبة كبيرة، فالإنسان إذا لم يجد شيئًا في نفسه يذهب إلىٰ ربه ويبكي ويسأله سبحانه أن يبصره بعيوب نفسه، ويقول: سامحني.. اغفر لي.. افتح عليّ، وتقف أمام

(١) أخرجه الترمذي، برقم (٢٦٨٩) كتاب الإيمان، وقال: حسن صحيح غريب.

الباب حتىٰ يفتح الله لك، فما دمت رأيت نفسك أنك قد وصلت إلىٰ الغاية فاعلم أنك في الحضيض.

٢- «**وسوء الظن بالنفس**»: أحدهم مرة قال لي: ربنا يحبني، قلت له: هذا شيء جميل أن تثق بالله... فكيف يحبك الله؟ قال: ومن يحب إذا لم يحبني أنا؟! وأخذ يسرد ما أعطاه الله من الدنيا: أموال وجاه وسلطان وحسب ونسب ومتع وشهوات! وكل هذا عند الله لا يساوي جناح بعوضة وليس دليلًا علىٰ الحب، الدليل علىٰ الحب التوفيق.. الزيادة في العبادة.. الاستمرار فيها، أما غير ذلك فليس بتوفيق، هذه نعم متكاثرة تستوجب منك الشكر بالليل والنهار، وهي عليك لا لك، تبعاتها أنت غير قادر عليها.

قال لي: أنا منذ خمس سنوات فتحت حسابًا في البنك أخرج الزكاة وأضعها فيه لأني لا أجد فقيرًا! قلت له: هل نحن في عصر عمر بن عبد العزيز؟! بحث فلم يجد فقيرًا في المسلمين! قال: نعم والله، قلت له: حسنًا إن شاء الله أكتب لك عشر عائلات وأكتب لك المبالغ التي يحتاجونها؛ ديون وعلاج وزواج وناس تريد أن تشتري سيارة تعمل عليها؛ لأنهم لا يجدون طعامًا يأكلونه، وناس تريد أن تفتح محلًا يبيعون فيه الحلوىٰ، قال لي: أنا أريد أن أعطي الواحد عشرة جنيهات في عشرة جنيهات؛ ولذلك لا أجد من يستحق العشرة جنيهات، وأنت تقول لي أعط له خمسة آلاف وستة آلاف يفتح بها محلًا!

كان السلف إذا أعطىٰ أغنىٰ حتىٰ ينتقل من الفقر إلىٰ الغنىٰ ويزكّي هو السنة القادمة، وهذا كَنَزَ الأموال في المصرف! فهو لا يخرج الزكاة ولكنه يضعها في المصرف لكي تزيد ويريد إخراجها وبالملايين، ويريد آلاف الناس ليعطي لهم عشرة في عشرة.. لا يوجد حكمة!! لا يوجد اتهام للنفس! عنده (الأنا، والذاتية) كبيرة جدًا، كان بعض أهل الله وهم يربّون أتباعهم وأنفسهم يخلّون كلامهم من (أنا) -وذلك في مرحلة من مراحل التربية يدرِّب نفسه- ومن (ياء الملكية)

فلا يقول: هات كتبي، خذ طعامي، تعال بيتي، ولكن يقول: تعال البيت، خذ الكتاب، هات الطعام، لا يضيف إلىٰ الياء التي تعني الملك والحوز لأنه لا يملك من الدنيا شيئًا إنما المالك هو الله، ونرجع بعد تلك الوقفة للكلام العادي؛ لأن سيدنا رسول الله ﷺ قال: (أنا)(١) وقال: تعال إلىٰ بيتي، وهو خير من نقلده، ولكن هذا لتقهر نفسك المعاكسة وترفضها في بداية السلوك وأول الطريق.

٣- «**وتمييز النعمة من الفتنة**»: **الله** ﷻ أعطىٰ لك أموالًا ليس لاستخدامها في الشهوات ولكن لكي تسلطها علىٰ هلكتها في الحق، فاعلم أنها نعمة فلا تجعل قلبك يتعلق بها أو يلتفت إلىٰ غيره..؛ فإن وقعت في ذلك فاعلم أنها نقمة وفتنة.

انظر إلىٰ النعم التي أعطاكها **الله** ﷻ: نعمة السلطان، نعمة الجاه، نعمة الوظيفة، نعمة الزوجة، نعمة الولد، نعمة المال، أدت بك إلىٰ أي شيء؟ إلىٰ حب الله ورسوله؟ حب المساكين؟ حب المسلمين؟ بذل ما في يدك توكلًا وثقةً بالله وما عنده؟ فإن الحب عطاء من غير نظر إلىٰ مقابل، أو أنك قد التفت بها إلىٰ غيره ﷻ؛ فإذا كانت الأولىٰ فهي نعمة، وإن كانت الثانية فهي نقمة وفتنة.

«**والأمر الثاني: أن تميِّز ما للحق عليك عما لك أو منك**»: مديونية ودائنية..؛ نريد أن نتحاسب: ماذا لك؟ وماذا عليك؟ وكل واحد يعرف حقه.. هذه هي القضية الثانية في المحاسبة.

وماذا عليك في قِبَلِ الله؟ عليك الطاعة والفروض والواجبات، ومطلوب منك السنن والرواتب والنوافل.

---

(١) منه قوله ﷺ: «**أنا خاتم النبيين في النبوة**»، وقوله ﷺ: «**وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت أنا إلى الجن والإنس**»، وقوله ﷺ: «**وَأَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ**»، وقوله ﷺ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلاَ فَخْرَ**»، وقوله ﷺ: «**أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا**».

فما لك عند الله؟! لا شيء، فأنت مفلس لأن هذه الأعمال في مقابلة بعض المنن التي عليك لا شيء..،

يا مسكين اعرف نفسك! وقف عند حدِّك!

انكشفت الحقيقة؛ فتعلم أن الجناية عليك حُجَّة، والطاعة عليك مِنَّة تقول: أنا صليت، يقول لك: أنا الذي جعلتك تصلي، تقول: أنا زكيت، يقول لك: أنا الذي وفقتك للزكاة، تقول: أنا ذكرت، يقول لك: أنا الذي جعلتك تذكر.

إذن أنت مدين في الجناية، مدين في الطاعة؛ فأنت تظن أن الطاعة التي فعلتها هي سبب دخولك الجنة، ولكن اتضح كما قال رسول الله ﷺ: «**لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الجَنَّةَ**». قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «**لاَ، وَلاَ أَنَا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ**»[1]، ﷺ.

«**والحُكْمُ عليك حجة ما هو لك معذرة**»: لا تقل: يا ربنا أنت الذي كتبت عليّ الطاعة، وأنت الذي كتبت عليّ المعصية.. الأمر ليس كذلك فالجناية التي كتبت عليك حجة عليك وليست معذرة لك، هي كتبت عليك لكي تعتذر وتقول له: سامحني، اغفر لي، لتثبت افتقارك إليه ولا تتكبر، والحُكم عليك حُجَّة ما هو لك معذرة، لا تستطيع أن تحوله إلىٰ معذرة تعتذر بها عند الله.

«**والثالث: أن تعرف أن كل طاعة رضيتها منك**»: رضيتها من نفسك وفرحت بها كأن قمت الليل أو صمت النهار «فهي عليك»؛ لأنها تحتاج إلىٰ شكر، والشكر يحتاج إلىٰ شكر والشكر يحتاج إلىٰ شكر.. وهكذا أبدًا.

«**وكل معصية عيَّرت بها أخاك فهي إليك**»: مردودة لأنك بتعييرك قد برأت نفسك، وتبرئتك لنفسك كِبْر، فربما يغفر الله له ويؤاخذك بها، فيكون هو الذي فعل المعصية

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، وقد سبق تخريجه ص: ٧٩.

فأورثته ندمًا وتوبة صادقة، وأنت قد تكبرت عليه فأُخِذْتَ بها فهي مردودة إليك.

«**فلا تضَعْ ميزان وقتك من يدك**»: أي لا تترك المحاسبة واعرف الذي لك والذي عليك، ولو تخليت عن هذا الميزان ضاع وقتك، وضاع واجب وقتك، وإذا حدث ذلك فإنك ستتوه ولن تعرف الحقيقة أبدًا..؛

وهذا الانكسار والذل الذي تفعله المحاسبة في نفس الإنسان هو الذي يهيئك للدخول إلىٰ الإنابة.

بَابُ الإِنَابَةِ

الإنابة ثلاثة أشياء

(١) الرجوع إلى الحق إصلاحاً كما رجع إليه اعتذاراً.

وذلك بـ:

١- الخروج من التبعات.
٢- والتوجع بالعثرات.
٣- استدراك الفائتات.

(٢) والرجوع إليه وفاءً كما رجع إليه عهداً.

وذلك بـ:

١- أن الجناية عليك حجة.
٢- والطاعة عليك مِنّة.
٣- والحكم عليك حجة، ما هو لك معذرة.

(٣) الرجوع إليه حالاً كما رجع إجابة.

وذلك بـ:

١- الإياس من عملك.
٢- معاينة اضطرارك.
٣- بشيم برق لطفه منك.

بين يدي الإنابة

باب الإنابة ينبغي أن تدخله وأنت ذليل خاضع لله.

بعض الغربيين يقولون: كيف يكون الإنسان ذليلًا؟ فتقول له: ذليل لله.

فهو لم يسجد لله تعالىٰ، ولو سجد لعرف كيف يكون ذليلًا لله وبذلك يكون عزيزًا علىٰ كل خلقه؛ لأنه أخرج الدنيا من قلبه فكانت في يده، لا يشغله شيء، ولا يتلفت إلى شيء، متوكل على الله، لا يخاف سوى الله، لا يعبد إلا إياه، لا يطلب إلا منه، لا يتوكل إلا عليه.

رضًا وتسليم وسعادة لو عرفها غيرنا لقاتلونا عليها كما يقاتلون على البترول؛ لأنهم في جحيم وهم يكتمون أنهم لا يقدرون أن يخرجوا من هذا الجحيم ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ [الأنفال، من آية: ٢٤]، فرعون كان يرىٰ سيدنا موسىٰ؛ عقله يقول له: اقتله فهذا هلاكك علىٰ يديه! وقلبه لا يطاوعه ويخاطبه قائلًا: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ ﴾ [الشعراء، الآيتين:١٧-١٨]، فهذا ليس خطاب من يريد أن يقتل أحدًا!! وفرعون كان يقتل بالنظرة، فكان ينظر فقط إلىٰ السَّيّاف ويشير إليه بقتل من يريد، ولكن الله ﷻ قال لسيدنا موسىٰ: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾ [طه، من آية: ٣٩]، أي أنزل الله تعالىٰ عليه خيمة المحبة: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾، فإذا كان قلبه الذي بين صدره يحول بينه وبينه ولا يستطيع أن يتصرف دونه؛ فهو يحول بين المرء ولسانه كذلك.

فبعد أن قدَّم أن اليقظة هي أول الطريق، وأنه ينبغي للمؤمن أن يعلم حقيقة الدنيا،

وأنها فانية، وأن الذي يبقى هو وجه الله ﷻ، وأنه من غير يقظة فليس للسالك أن يسير في الطريق إلىٰ الله وأنه لا تكليف علىٰ النائم لأنه خارج عن نطاق التكليف، فأول ما تفعل وأنت تريد طريق الله والسلوك إليه والفرار إليه ﷻ فلابد عليك من اليقظة، واليقظة هي أن تلتفت إلىٰ حقيقة تلك الدنيا وأنها زائلة فانية لا تبقىٰ لأحد ولم تبق لأحد، قال الله تعالىٰ لسيد المرسلين: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقال ﷻ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧].

إذن فهذه الدنيا ينبغي أن نفهم فيها أنه لا حول ولا قوة إلا بالله، إذا تيقظت وعرفت حقيقة الدنيا وأنها إلى زوال عرفت أيضًا أنه لا حول ولا قوة إلا بالله، فلا قوة لنا إلا من الله، ولا حول لنا إلا بحول الله، ولا عمل لنا إلا بتوفيق الله، ولا هداية لنا إلا بهداية الله، فالأمر كله لله من قبل ومن بعد.

ثم تكلم بعد ذلك عن أول خطوة تستمر مع الإنسان إلى منتهاه وهي التوبة، فاليقظة أول الطريق والتوبة أول خطوة تخطوها في هذا الطريق، وبَيَّنَ شروطها وأحوالها وأنواعها وما يساعد عليها ثم بعد ذلك أردفها بالخطوة الثالثة: المحاسبة، وكما قال رسول الله ﷺ: «الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ» -يعني حاسبها قبل يوم القيامة- «وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ» وَيُرْوَىٰ عَنْ عُمَرَ بنِ الْخَطَّابِ قَالَ: «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبلَ أَنْ تُحَاسَبُوا وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الأَكْبَرِ وَإِنَّمَا يَخِفُّ الْحِسَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيا»(١). ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [الحشر، من آية: ١٨].

بعد ذلك تأتي مرحلة الإنابة، وهو الباب الرابع من الأبواب المائة، حيث قَسَّمَ الطريق إلىٰ عشر مراحل كل مرحلة إلىٰ عشر خطوات.

---

(١) أخرجه الترمذي: ٦٣٨/٤، برقم (٢٤٥٩)، والحاكم: ١٢٥/١، برقم (١٩١) وقال: صحيح علىٰ شرط البخاري.

باب الإنابة

«قال الله ﷻ: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾ [الزمر، من آية: ٥٤]، ها هو الشاهد؛ يعني أنهم كانوا يتعاملون مع القرآن كلمة كلمة ويقفون عندها ينظرون ويتفكرون: كيف ننيب إلىٰ الله؟

كيف تطيعه ﷻ نعمل برنامجًا حتىٰ ننفذ أوامر الله فإنه تعالىٰ قال: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ﴾، إذن فلابد أن يقف الإنسان مع نفسه ومع ربه فيضع برنامجًا لكيفية الإنابة.

والإنابة إلىٰ الله تكون بامتثال أمر الله، مع الفرح بما عنده وما هو منه، والسكون بين يديه ﷻ علىٰ المحبة والرضا به ﷻ دون سواه.

قال العلماء: الصلاة دليل الإنابة، النبي ﷺ يقول في شأن هذه الصلاة أنها عمود الأمر[1] وأهم شيء فيه، يعني من غيرها تُهَدُّ الخيمة، من غيرها لا تستطيع ركوب الجمل ولا أن تضع عليه الرحل أو الهودج، يقول في شأنها رسول الله ﷺ: «**الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ الصَّلاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ**»[2]، رأفةً بالأمة لم يقل: فهو كافر؛ فلو قالها لخرج من الملة، لكن قال: (فقد كفر)، كفر يعني ارتكب عملًا فظيعًا شنيعًا من أعمال الكفار ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء، من آية: ١٠٣]، فالذي لا يجعلها عنده كتابًا موقوتًا كأنه فعل فعلًا خارج إطار الإيمان، فهذه الصلاة عظيمة جدًا ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة، من آية: ٤٥]، وهناك كتاب جمع فيه

---

(١) روىٰ معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ أنه قَالَ: «**أَلاَ أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ**»؟ قُلْتُ: بَلَىٰ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلاَمُ، وَعُمودُهُ الصَّلاَةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ**» أخرجه الترمذي، برقم (٢٦٨٣) كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، وقال: حسن صحيح.

(٢) أخرجه الترمذي، برقم (٢٦٨٩) كتاب الإيمان، وقال: حسن صحيح غريب.

مؤلفه الأحاديث التي في تعظيم شأن الصلاة عنوانه: «تعظيم قدر الصلاة»(١).

سألوا أهل الله عن معنىٰ كلمة: «منيب»؟ فأحدهم قال: منيب يعني محب لله، سألوا آخر قال: يعني خاضع لله ومستسلم لله، سألوا ثالثًا فقال: يعني مقبل علىٰ الله بسرعة وبفرح وبشوق، سألوا رابعًا قال: يعني مُدبر عما سوىٰ الله.. أي يضع ما سوىٰ الله خلف ظهره حتىٰ لا يراه.. ودار كلامهم كلهم -كل أهل الله- علىٰ هذه الأربعة: المحبة والخضوع والإقبال على الله والإدبار عما سوىٰ الله.

فسألوهم: ما علاقة الصلاة بهذا؟! قالوا: وأنت واقف في الصلاة تكون مستقبل القبلة، ففيها دلالة تذكرك على الإقبال يعني وأنت واقف في الصلاة مقبل علىٰ الله، وأنت واقف في الصلاة جعل لك الله وجهة تتوجه إليها فلا تصلي في أي مكان، كان من الممكن أن تكون القبلة في أي اتجاه ونصلي شرق، أو نصلي غرب، أو نصلي جنوب، أو نصلي جنوب شرق ونقول: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة، من آية: ١١٥]، كان يمكن أن يتيح لنا ربنا هذا ولكن جعلنا كلنا ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ [البقرة، من آية: ١٥٠]، ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ ﴾ [البقرة، من آية: ١٤٤]، فجعل هناك إقبالاً علىٰ علامة ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى ﴾ [آل عمران، من آية: ٩٦]، هذه العلامة فيها إشارة ودليل، والدليل هو ما يوصل إلىٰ الشيء، فالصلاة دليل الإنابة لأنها تلفتك إلىٰ الإقبال.

---

(١) لمؤلفه: أبو عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج المروزي (٢٠٢-٢٩٤هـ)، وكتابه هذا مشهور بين أهل العلم، قسّم المصنف كتابه هذا إلىٰ أبواب، وجعل لكل باب عنوانًا، وأورد في الباب ما يتصل به من أدلة، وربما قدم كلامه وتعليقاته ثم يتبعها بذكر الأدلة من الكتاب والسنة وآثار السلف، وقد يقدم الأدلة ثم يذكر بعدها شرحه وتعليقاته. بلغ عدد النصوص المسندة الواردة بالكتاب (٩٣٥) نصًا، وقد تنوّعت بين أحاديث مرفوعة وآثار موقوفة على الصحابة والتابعين ومن بعدهم.

وفي الوقت نفسه وأنت مستقبل القبلة تكون مستدبرًا العالم، وعندما تقول: «الله أكبر» -تكبيرة الإحرام- يحرم عليك الكلام والأكل والشرب والعبث واللعب ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة، من آية: ٢٣٨] يعني ساكتين، فكما قال النبي ﷺ: «**إِنَّ هٰذِهِ الصَّلاَةَ لاَ يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلاَمِ النَّاسِ. إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ**»[١] لا يصلح فيها الشواغل والمشاغل، إذن ففيها إقبال وإدبار.

ثم الحب.. ما حقيقة الحب؟ قالوا: الحب عطاء، وبذل، ومبادرة قبل الطلب، ومسارعة في هوى المحبوب، وليس بالتمني ولا ميلًا قلبيا فقط، سيدنا أبو بكر كان يحب سيدنا رسول الله ﷺ حبًا عظيمًا؛ ففي الهجرة كان يتقدم عندما يشعر أن خطرًا يمكن أن يأتي من أمامه، ويتأخر يحمي ظهره، ثم يأتي عن يمينه، ثم يأتي عن شماله، أكثر من خوف الأم علىٰ ابنها الصغير، وعندما دخل الغار دخل قبله، ولما وجد جُحرا ولم يجد ما يسده به وضع عَقِبه حتىٰ لدغه ثعبان فبكىٰ صامتًا من شدة الألم فنزلت دمعه علىٰ خد رسول الله ﷺ وهو نائم، كل هذه الأشياء تدل علىٰ الحب، الحب لا يعني أن يحبه في قلبه ثم يقول له: اذهب وهاجر وحدك إني أخاف أن يدركونا.. الحب عطاء وبذل؛ فقد عرض سيدنا أبو بكر رضي الله عنه علىٰ رسول الله ﷺ الراحلتين، فأبىٰ رسول الله ﷺ حتىٰ تكون هجرته خالصة لله، وقال له: (بالثَّمَن)[٢].

قال الحسن: «وإن أناسًا قد غرهم بالله الغرور يقولون نحن نحسن الظن بالله لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل»[٣].

---

(١) أخرجه مسلم: ١/٣٨١، برقم (٥٣٧) كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تَحْرِيمِ الْكَلاَمِ فِي الصَّلاَةِ وَنَسْخِ مَا كَانَ مِنْ إِبَاحَتِهِ.

(٢) أخرجه البخاري: ٢/٧٥١، برقم (٢٠٣١) كتاب مناقب الأنصار.

(٣) سبق تخريجه ص: ٢٩.

تَعْـصِي الإلَـهَ وَأَنْـتَ تُظْهِـرُ حُبّـه * هَـذَا لَعَمْـرِي فِـي الْقِيَـاسِ بَـدِيعُ
لَـوْ كنـت حقًّـا حِبّـه لأطعتـه * إنَّ الْمُحِـبَ لِمَـن يُحِـبُّ مُطِيـعُ

فالحب عطاء، والصلاة عطاء وتشير إلىٰ ركن ثالث من أركان الإنابة في الصلاة، نحن لا نجلس علىٰ الكراسي في الصلاة ونترك الإمام يصلي ونحن نشاهده مثلما يحدث في بعض الديانات.

إذن الصلاة أشارت إلىٰ المحبة بالعطاء، وأشارت إلىٰ الخضوع بالسجود، وأشارت إلىٰ الإقبال بالاستقبال، وأشارت إلى التبري مما سوىٰ الله بالإدبار، إذن الصلاة دليل الإنابة.

نحن نريد أن نفهم الإنابة ونفهم الدليل ونفهم الصلاة ونتأملها ونتدبرها، فنحن تعودنا علىٰ الصلاة ففقدنا معناها -حيث إن الألفة ترفع الكُلفة- وتحولت الصلاة من عبادة إلىٰ عادة، فلم يظهر الأثر الفعال لها، لكن لو رجعنا مرة أخرىٰ نتأمل ونتدبر ونهدِّئ أنفسنا ونعيش معها - سنستشعر حلاوتها وترجع لنا روح الصلاة مرة أخرىٰ، الصلاة: صلة بين العبد وربه، ولذلك قال الله ﷻ في الحديث القدسي: «**قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ**.... الحديث **وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**»[1]، فهناك صلة وهناك حب.

والصلاة في اللغة: الدعاء؛ فأنت تدعو الله فيَمُنُّ عليك ويستجيب هذه عطية، إذن هو يحبك؛ فإذا قال قائل: إنه يعطي الكافر! نعم.. فهو يحبه ويحب هدايته، لكنه إذا استمر كافرًا حتىٰ يموت علىٰ كفره فهو الذي ضيَّع نفسه ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت، من آية: ٤٦]، ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [البقرة، من آية: ٥٧]، فربنا كريم رحمن رحيم؛ رحيم الآخرة

(١) أخرجه مسلم: ٢٩٦/١، برقم (٣٩٥) كتاب الصلاة، باب باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة.

﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب، من آية: ٤٣]، لكنه رحمن الدنيا حتىٰ الكافر يرحمه فهو صنعته.

إذن فالحب عطاء، والخضوع سجود، والاستقبال إقبال، والإدبار تبري عما سوىٰ الله وهي حقيقة الإنابة.

«**الإنابة ثلاثة أشياء**»: إذا أردت أن تحقق هذا المعنىٰ:

١- «**الرجوع إلى الحق إصلاحًا كما رجع إليه اعتذارًا**»: إذن الإنابة هي المتممة للتوبة؛ فالتوبة: فيها اعتذار وندم، والإنابة: إصلاح ورجوع.. التوبة: النظر، والإنابة: العمل ﴿ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ ﴾ [البقرة، من آية: ١٦٠] التوبة هي أنك تندم على الذنب، وتعاهد ربنا بأنك لن تعود إليه مرة ثانية وأن تنخلع منه، وأن ترد حقوق العباد.. التوبة: التصميم على ترك الذنوب، والإنابة: الفعل.

إذن لابد عليك -بعد أن تُبت- أن تعمل لله.. تفعل شيئًا تنيب إلىٰ الله.. تشتغل.. تصوم.. تصلي.. تذكر.. تدعو.. تتلو.. تكفّ أذاك عن الناس.. تنتهي عن المناهي والمناكير.. وهكذا تفعل وتترك لله، **كما رجع إليه اعتذارًا**، يعني أنت في التوبة تكون ندمانًا...؛ فلا يكفي التوبة باللسان لابد أن يتلوه الإنابة بالعمل.

٢- «**والرجوع إليه وفاءً كما رجع إليه عهدًا**»: فالتوبة عهد بينك وبين الله ﴿ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾ [الأحزاب، من آية: ١٥]، ستُسأل عنه فلابد أن ترجع إليه ﷻ بالوفاء كما عاهدته والإنابة هي الوفاء بالعهد؛ لأن الغدر في العهد نوع من أنواع النفاق والخيانة، قال رسول الله ﷺ: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّىٰ يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ**

كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»[1] النفاق العملي وليس النفاق الاعتقادي، النفاق الاعتقادي -والعياذ بالله- عقابه الخلود في النار ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء، من آية: ١٤٥]، لكن النفاق العملي يجب أن نتوب منه ولا ندع أنفسنا وفينا خصلة من خصاله، وألا يخاصم أحدنا فيفجر في خصومته وهو عارف بحقوق الناس.

حصل طلاق بين الزوجين فلا يؤذيها ولا يتمنىٰ أذاها في نفسها، بل تظل المعاملة بالمعروف، ويتذكرها بالجميل، ويذكر أمام الناس محاسنها وطيب عشرتها، ولا يؤذيها بأولادها ولا يضارّها بهم.

رأينا وثائق الطلاق الموجودة في الأوقاف قديمًا كانت مكونة من ثلاثة مقاطع: المقطع الأول: الحمد لله والصلاة علىٰ رسول الله... وكذا والشهادتين هذا يعني أننا مسلمون، المقطع الثاني: مدح فيها -عندما تقرأه تقول هذا مجنون أنه يطلقها- يقول لها: أنا لم أر منك يومًا سيئًا وجزاك الله خيرًا وهي عشرة طيبة قضيناها معًا..؛ إذن هؤلاء أناس طيبون؛ لأن هذا من صفات المؤمنين أنك لا تخلف العهد، وأنت كنت آخذ بينك وبينها عهدًا موثقًا وغليظًا.

٣- **«والرجوع إليه حالاً كما رجع إليه إجابة»**: فكما استجبت إليه وتبت فلابد إذن عليك أن تغير حالك معه.

«وإنما يستقيم الرجوع إليه إصلاحا بثلاثة أشياء:

١- **بالخروج من التبعات»**: فإذا كان عليك صلاة فائتة تؤديها، صيام فائت تؤديه، قصرت في شيء من حقوق الله.. زكاة لم تخرجها لمدة عشرين عامًا تخرجها

(١) أخرجه البخاري: ٢١/١، برقم (٣٤)، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق.

ولو بالتقسيط.. هذه كلها ديون لله في ذمتك فقد قال ﷺ: «**فَدَيْنُ اللهِ أَحَقُّ أَنْ يُقْضَىٰ**»[1] فلابد أن تخرج من التبعات.. تسدد شيئًا فشيئًا.. مع كل صلاة تصلي صلاة، صم الاثنين والخميس.. مائة يوم في السنة.. يعني ثلاثة أشهر.. يعني ثلاث سنوات.. يعني لو كنت أفطرت عشرين سنة تظل سبع سنوات تقضيها.. وهكذا، تجد العملية ميسّرة، فالخروج من التبعات هو الذي سيجعلك تتعود على العمل؛ لأن هذا العمل هو الذي يولد الإيمان الحقيقي والحلاوة الحقيقية في قلوب العباد.

أما حقوق الناس فعلىٰ نوعين: مثال النوع الأول: أرض أنا مغتصبها أرجعها لصاحبها.

مثال النوع الثاني: حدث منك غشٌ في الميزان لمدة عشرين سنة في سلعةٍ ما، وكنت تبخث الميزان، أو أن شخصًا اغتصبت منه شيئًا ولا تستطيع العثور عليه، أو أنه قد مات ولا وارث له، ففي هذه الحالة أتصدق بقيمة هذا الشيء المغتصب لأنه تعذر أن أرده لصاحبه، أما لو كان حيًا واستطعت الوصول إليه أو كان ميتًا وله وَرَثة يسهل الوصول إليهم- فيجب أن تُرد له بأي طريقة.

أما تاجر المخدرات التائب فهذه الأموال يجعلها لله، ويأخذ منها على قدر ما تستقيم به حياته. تسأل: أنا جمعت ملايين من الرقص وتبت الآن فماذا أفعل؟ خذي ما يكفيك بالمعروف والباقي يخرج لله. مثال: شخص زنىٰ بزوجة جاره ويريد أن يذهب إليه ويطلب منه أن يسامحه؟ في هذه الحالة الستر أَوْلَىٰ لأنه سيقتل زوجته ويقتله.. والتوبة عند الله هكذا تكون، والنبي ﷺ يقول: «**كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلاَّ المُجَاهِرِينَ. وَإِنَّ مِنَ المَجَانَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلاً ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللهُ فَيَقُولَ: يَا فُلاَنُ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ**

---

(١) متفق عليه، واللفظ للبخاري: ٢/٦٩٠، برقم (١٨٥٢) كتاب الصوم، باب من مات وعليه صوم، ومسلم برقم: ٢/٨٠٤، (١١٤٨).

سِتْرَ اللهِ عَنْهُ»(١)، أنت تبت تاب الله عليك..؛ انس هذا الذنب ولا تفضح نفسك؛ فإن الستر هنا هو المأمور به.

إذن التبعات الخروج منها كلٌّ بحسبه: ما لله تعالىٰ يكون بقضائه، وما للبشر وهو قائم يكون بِرَدّه، فإذا انسد وانقطع الطريق لرده يكون بالتصدق بقيمته علىٰ نية صاحبه، فإذا كانت هذه الحقوق تورث الحقد والضغينة والفتنة فالتوبة تكون بين العبد وربه؛ لأن الستر في هذه الحالة أَوْلىٰ.

٢- «**والتوجع للعثرات**»: فإذا رأيت أحدًا يعمل ذنبًا تحزن كأنك أنت الذي عمله، تكون عطوفًا عليه لا تتكبر عليه، فهناك أناس تتكبر بالطاعة وتتيه بها، لكن المسلم لا يتكبر بالطاعة ولا يتيه بها، وكلما رأىٰ ذنبًا في الناس تحسّر، وهذا الإمام أحمد بن حنبل عرضوا بوله علىٰ طبيب قال: هذا رجل قد قطع الحزن كبده، يعني أصاب كبده وأصبح ورقة بالية، فقالوا له: لِمَ هذا الحزن؟! فقال: من بِدَع الناس.. من الذنوب.. وهو كاتم في نفسه ولا يملك التغيير إنما من الداخل حزين عليهم.

فإذا كان هذا حالك وشأنك تجاه عثرات الآخرين؛ فكيف بتوجعك على عثراتك أنت؟!

٣- «**واستدراك الفائتات**»: يعني الفائتات التي بينه وبين الله، والخروج من التبعات بالكلية بينه وبين العباد.

«**وإنما يستقيم الرجوع إليه وفاءً بثلاثة أشياء:**

١- **بالخلاص من لذة الذنب**»: يريد أن يخرج من الذنب، فالذنب وأنت تفعله إذا رأيته سيئًا فأنت ما زلت مؤمنًا ويوجد نور بالداخل، وأما إذا استحسنته فأنت قد

---

(١) أخرجه البخاري: ٥/٢٢٥٤، برقم (٥٧٢١) كتاب الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه.

خرج النور من قلبك وحل محله الظلمة.. لكي يأتي النور مرة ثانية من الداخل فلابد أن تتخلص من لذة الذنب، فلو وجدت نفسك مشتهيا للذنب فاعلم أن قلبك لم ينوَّر بعد، فَنَوِّرَهُ بالصلاة على الحبيب ﷺ وبالإكثار من ذلك. فكثرة الصلاة علىٰ النبي ﷺ تُنِير القلوب.

٢- «**وبترك استهانة أهل الغفلة تخوفًا عليهم مع الرجاء لنفسك**»: لا تكن أنانيًا وتنشغل بنفسك فقط، ولكن احمل هَمَّ الخلق وأحب لهم ما تحب لنفسك.

٣- «**وبالاستقصاء في رؤية علل الخدمة**»: **دائمًا** اتهم نفسك بالتقصير، ولكن من غير وسوسة.. كل فترة تخلو بنفسك وتسألها: هل أنا أعبد الله علىٰ صواب أم خطأ؟ وتبحث حتىٰ لا يكون هناك أشياء خاطئة أنت تقوم بها وأنت لا تدري.

«**وإنما يستقيم الرجوع إليه ﷻ حالًا بثلاثة أشياء:**

١- **بالإياس من عملك**»: لا تلتفت لعملك فلن يدخلك الجنة، الجنة هذه عظيمة جدًا لكي تدخلها اسجد طوال النهار، فلو فعلت ذلك فمتىٰ تأكل ومتىٰ تقضي حاجتك؟! إذن فلا تعتمد علىٰ عملك الذي تقدمه لربك فهو في الحقيقة تافه، فارجُ رحمته وادعه أن يدخلك الجنة، تعلموا كيف تخاطبون ربكم؛ الحجاج -كان سفاكًا للدماء- قتل سعيد بن جبير، وكان من أهل الله فدعا سعيدُ قائلًا: اللهم لا تمكنه من أحد بعدي، فمرض الحجاج مرض الموت.. فأدرك أن دعوة سعيد قد أصابته، فكان يقول في مرض الموت: مالي ولسعيد[(١)]..! يعني لما مرض فَهِم أن هذا من دعوة سعيد! لم ينغلق قلبه كاملًا، وهذا توفيق من عند الله لأنه كان كثيرًا ما يقرأ القرآن -كان من كثرة قراءته للقرآن يختمه كل سبعة أيام- فقال: «اللهم اغفر لي فإن

(١) انظر القصة بتمامها في تاريخ الطبري: ٤/٢٥.

الناس يزعمون أنك لا تفعل[1]»، عرف كيف يخاطب ربه! فكأنه قال: اغفر لي حتى يعلموا أنك ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج، آية: ١٦].. اغفر لي لأنك أنت القاهر فوق عباده.. اعترف بذنبه وجاء نادمًا وفهم عن الله مراده، وخَبَتَ[2] وعرف كيف يخاطب ربه؛ إن الناس تزعم إنك لا تغفر للحجاج اللهم اغفر لي.

٢- «**وبمعاينة اضطرارك**»: اعلم أنك مضطر إليه وأنت في حاجة إليه وهو ليس في حاجة إليك، لابد أن تعتقد هذا دائمًا وتعلم أنه لا حول ولا قوة بك فأنت مسكين.

٣- «**وبشَيْمِ برق لطفه بك**»: يعني تلاحظ لطفه الذي يلطفه بك، الناس تقول: العين عليها حارس. تأتي الضربة فوقها تأتي تحتها! لو تأملت اللطف الذي يحدث معنا في السيارات والحوادث والأحداث..! فاعلم أنك بين يدي الله يفعل فيك ما يشاء، ومن أجل هذا لابد أن تراقب لُطف الله فيك فيساعدك على أن حالك معه يترقَّى ويكون أحسن ما يكون.

(١) انظر: البداية والنهاية: ١٥٨/٩: قال فيه: (عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: ما حسدت الحجاج عدو الله على شيء حسدي إياه على حبه القرآن وإعطائه أهله عليه، وقوله حين حضرته الوفاة: اللهم اغفر لي فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل).

(٢) من الإخبات، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج:٣٤]. والإخبات بمعنى الاطمئنان والتواضع والتَّخَشُّع. انظر: لسان العرب: ٢٧/٢ بتصرف.

بَابُ
التّفكُر

التفكُّر

تلمُس البصيرة لاستدراك البغية

(١) فكــرة في عــين التوحيــد.

- هي اقتحام بحر الجحود.
- لا ينجي منه إلا الاعتصام بضياء الكشف والتمسك بالعلم الظاهر.

يتخلص منها بثلاثة أشياء:

١- بمعرفة عجز العقل.
٢- بالإياس عن الوقوف على الغاية.
٣- بالاعتصام بحبل الله.

(٢) فكــرة في لطــائف الصــنــع.

- هو ماء يسقي زرع الحكمة.

تُدرك بثلاثة أشياء:

١- بحسن النظر في مبادئ المِنَن.
٢- بالإجابة لدواعي الإشارة.
٣- بالخلاص من رق إتيان الشهوات.

(٣) فكرة في معاني الأعمال والأحوال.

- هي تسهل سلوك طريق الحقيقة.

يوقف عليها بثلاثة أشياء:

١- استصحاب العلم.
٢- اتهام المرسومات.
٣- معرفة مواقع الغير.

بابُ التفكرُ

بعد أن بَيَّنَ باب اليقظة وباب التوبة وباب المحاسبة وباب الإنابة.. شرع في الباب الخامس من مائة باب.. يعني في الخطوة الخامسة من مائة خطوة (باب التَّفَكُّر).

«**قال الله تعالى:** ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل، من آية: ٤٤]، وقف عند كلمةٍ من كتاب الله؛ لأنه هو الحق الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت، من آية: ٤٢] كلمة الله ﷻ التي سمح لنا أن نتلوها وأن نقرأها وأن نهتدي بهديها.. لم يفهم فقط ولا اقتنع ولا صَدَّقَ ولا آمن ووقف عند الإيمان فحسب بل عاش في قوله: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يعني علينا أن نتفكر، والفكر في لغة العرب حركة النفس في المعقولات، يعني أن الإنسان يتفكر بعقله، فالفكر له ارتباط بالعقل والله ﷻ يقول: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ كأنه يدعونا إلىٰ استعمال العقل، والتفكر لابد أن يكون له موضوع فقال:

«**اعلم أن التفكر تَلَمُّس البصيرة لاستدراك البغية**»: هذا هو التفكر المطلوب، هذه هي الحركة المطلوبة؛ النفس تدرك الأشياء عن طريق الحواس: السمع، البصر، الشم، الذوق، اللمس... ونحو ذلك- وتدرك الواقع المعيش الذي حولنا من خلالها، فمثلًا العين إذا أرادت أن ترىٰ ما علىٰ يمينها فإنها تتحرك لتنظر: إما أن تتحرك مع ثبات وجهي، وإما أن تتحرك مع حركته أيضًا حتىٰ ترىٰ مساحة أكبر؛ فيلتفت الإنسان عن يمينه حتىٰ يرىٰ فتنقل العين إلىٰ الدماغ هذا المشهد الذي عن اليمين أو هذا المشهد الذي عن اليسار، إذن العين هي منفذ من منافذ النفس المدركة حتىٰ تدرك، والقلب أيضًا له عين..

قلـــوبُ العـــارفين لهـــا عيـــون ❊ تـــرىٰ مَـــا لا يـــراهُ النـــاظرون

فما عين القلب؟ البصيرة.

إذن عندنا بصر ينقل المحسوسات ويتعقل فيها، وعندنا بصيرة تنقل للقلب أيضًا بُغيته، فالقلب له بُغية كما أن النفس لها بغية، فإذا كانت النفس تريد إدراك المحسوس من حولها فتتعقله في عالم الأشياء وفي عالم الأشخاص وفي عالم الأحداث وفي عالم الأفكار، فإن القلب له بصيرة تدرك بُغيته؛ حيث تتلفت البصيرة هنا وهناك ولكنها تبحث عن شيء آخر، لا تبحث عن عالم الأشياء والأشخاص وهذه الماديات، لكنها تبحث عن شيء يريده القلب، فماذا تهوى قلوب الصالحين؟ تَلَمُّس البصيرة، وهذا التَلَمُّس فيه حركة وفيه بحث في أنوار.. أسرار.. حكم.. فُهُومات.. عوالم أخرى تجول فيها الفكرة.

«وهو ثلاثة أنواع:

١- **فكرةٌ في عين التوحيد»**: البصيرة تبحث عن كُنْه التوحيد؛ فالسالك مشتاق إلىٰ الله، يريد أن يعرف كل شيء عن ربنا، لكنه لن يستطيع أن يصل إلىٰ شيء؛ لأن هذا التوحيد هو تفكر في ذات الله؛ فالرب رب والعبد عبد وهناك فارق بين المخلوق والخالق.

إذن هذا الفكر- الذي هو في عين التوحيد- يمثل ورطة نريد أن نخرج منها،

وهذا هو الحاصل، عندما يفكر، يفكر في عين التوحيد.

أهل الله أتوا بهذا الكلام من التجربة ومن الاستنباط؛ انقطعوا عن العالم وربوا أنفسهم واختلوا بذكر ربهم، فإذ بنفوسهم تحدثهم، وقلوبهم تميل، وعين البصيرة تلتمس عين التوحيد.. فسجلوا ذلك في الكتب حتى يقولوا لك- في أثناء سلوكك وقد مررت بما مروا به من قبل- اطمئن عندما تحدث لك هذه الحالة سوف تخرج منها، سوف ترىٰ علاجها وهي لا تؤدي إلىٰ شيء..؛ لا تخف فهي قد حدثت لنا

كلنا..؛ إذن هدف التسجيل هنا في الكتاب أنه يعلمنا ويطمئننا أن هذا الأمر عادي، ولكن كيف تخرج منه؟ فأول شيء أن القلب يميل ويهوىٰ ربه، ثم بعد ذلك يبدأ في التفكر والتلمس ويريد أن يجيب عن جميع الأسئلة ويطمئن، قال إبراهيم: ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ [البقرة، من آية: ٢٦٠]، يبحث في عين التوحيد، ولكن ربنا نجّاه.

٢- «وفكرة في لطائف الصنع»:

وَفِـي كُـلِّ شَـيْءٍ لَـهُ آيَـةٌ * تَـدُلُّ عَلَـىٰ أَنَّـهُ وَاحِـدٌ

فينظر في كل شيء ويرىٰ الله وراءه، فيعلم علم اليقين أن هذا الإنسان لا يمكن أن يكون إلا بإله قد خلقه فسواه فأحسن مثواه- يعني من البداية إلىٰ النهاية.

يرىٰ الله الخالق ويرىٰ الله بقدرته وحكمته وعِزّته وعلمه وإرادته وكل صفاته برحمته وعفوه- وراء كل شيء.

٣- «وفكرة في معاني الأعمال والأحوال»: فيجد نفسه وهو يصلي: الصلاة لها أسرار، وهو يصوم: الصيام له أسرار، وهو يحج: الحج له أسرار، وهو يذكر: الذكر له أسرار، كل سر مختلف عن الثاني، فيتفكر في تلك الأسرار وتنكشف له سرًّا بعد سر؛ فمثلًا وهو قائم يصلي يُشبه الملائكة فيرىٰ أن القيام إنما هو دليل علىٰ التوقير والتعظيم، وأنه بذلك يوقّر ربه ويعظمه ويشتد به ذلك الوقار وهذا التعظيم إلىٰ أن يخر لله راكعًا، ثم يقوم لله تعظيمًا فيخر ساجدًا، وهو ساجد يشعر أنه قد امتزج بالكون وامتزج الكون معه -لأن الكون كله يسجد لله- في السجود، فيقول فيه: سبحان ربي الأعلىٰ، سبوح قدوس رب الملائكة والروح.. يعني تسبيح، والكون الساجد هذا يسبح ربه علىٰ كل حال ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء، من آية: ٤٤]، ﴿ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الحج، من آية: ١٨]، والكل يسبح ربه وأنت أصبحت ممزوجا في الكون؛ فأنت لست وحدك

الذي تسجد ولكن يسجد معك أيضا الجن والملائكة والكون من حولك، ولذلك فإن الكفار عندما يموتون ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ [الدخان، من آية: ٢٩]، لكن المسلم عندما يموت تبكي عليه السماء وتبكي عليه الأرض.

إذن السماء تبكي وتسبح وتسجد... وأنت في هذا الكون متسق معه، هذا سر من أسرار الصلاة ويفتح الله علىٰ من يشاء بغير هذا، وهناك أشياء لا تستطيع أن تعبر عنها؛ تشعرها وليس لها في اللغة مقابل، ويتقلب العبد فيها.

سيأخذهم خطوة خطوة : فكرة في عين التوحيد، وفكرة في لطائف الصنع، وفكرة في معاني الأعمال والأحوال.

«**فأما الفكرة في عين التوحيد فهي اقتحام بحر الجحود**»: يعني بحر ليس له نهاية ومهلكة **لا يُنجِي منه إلا الاعتصام بضياء الكشف**: أي بالأنوار التي تنتج من الكشف وهي من عند الله ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة، من آية: ٢٨٢]، ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف، من آية: ٦٥] وهذا هو العلم اللدني.

الإمام الغزالي اختلىٰ في المنارة يفكر سنين طويلة ثم توصل إلىٰ أنه لا فائدة إلا بهداية الله، فألقىٰ الله في قلبه نورًا، وعلم أن الأمر واضح؛ الله تعالىٰ خلقني، وأمرني بالعبادة، فالأمر واضح لا يحتاج الأمر إلى كل هذه الدراسة والكتب والتشكيك والرد على التشكيك؛ فنحن نصنع المشكلة ونبحث بعد صناعتها علىٰ حلها، فالأمر يسير ولكن علىٰ من يسره الله عليه، حيث انكشفت له الحقيقة، وقذف النور في قلبه..؛ فيعلم أن الأمر كله بيد الله...؛ فعندما تتلمس بصيرتك هذه الأسئلة -حول: الله، الحياة، الموت، الأرزاق، العلاقات بين الخلق- فإذ بالنور يُبين لك أن الأمر هين قريب، وأن العبد عبد، والرب رب، وأن هناك فارق بين المخلوق والخالق، وأن الله ﷻ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾، فنفىٰ عنه المثلية ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورىٰ، من آية: ١١]، فأثبت له الاطلاع علىٰ كل حال، أو أثبت له

هذا التنزيه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ونفىٰ أن يكون ﷻ محجوبًا؛ فالله لا يحجبه شيء، إنما أنت المحجوب؛ فالحجاب للناظر وليس للمنظور.

«**والتمسك بالعلم الظاهر**»: الذي هو التمسك بالعمل الظاهر، تجد ذلك في نظم (الجوهرة) لسيدنا الشيخ اللقاني وشرح الباجوري، و(الخريدة) لسيدنا الشيخ الدردير رضي الله عنه، تقرأ في الخريدة:

أقسامُ حكمِ العَقلِ لا مَحالَهْ ❊ هي الوجوبُ ثم الاستحالَهْ

ثم الجوازُ ثالثُ الأقْسامِ ❊ فافهمْ مُنِحتَ لذةَ الإفهامِ

وهناك في الجوهرة:

وكل نصٍّ أوهم التشبيهَا ❊ أوِّلْهُ أو فوِّض ورُمْ تنزيها

فهذا أمر سهل جدًا، أن تركب قارب العلم الظاهر حتىٰ تنجو من بحر الجحود، الذي هو البحث في عين التوحيد وهو البحث في كنه الله؟ ذات الله؟ كيف الله؟ متىٰ الله؟! سبحان الله!! هذا.. وإما بنور يُلْقَىٰ في القلب.

«**وأما التفكر في لطائف الصنع فهو ماء يسقي زرع الحكمة**»: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة، من آية: ٢٦٩]، فالبذرة نضع عليها الماء، ولكنها تريد قبل ذلك تربة توضع فيها؛ فالحكمة بذرة نضعها في القلب ونسقيها بماء التفكر في لطائف الصنع فتنمو، ولطائف الصنع أن تعرف الأشياء بخصائصها ووظائفها وآثارها وفوائدها وأسبابها ومآلاتها ومقاماتها.

تنظر للإنسان وتقول: سبحان من سَوّاك! تنظر للطفل وتقول: لا إله إلا الله رب العزة يحفظه لا يستطيع أن يتكلم ولا يعمل.. سبحان من رَبَّاه! تنظر إلىٰ أصحاب العجز أو المرض أو الصحة أو القوة، أو تنظر إلىٰ الظَّلَمة والطُّغَاة، أو تنظر إلىٰ المظلومين والمقهورين، أو تنظر إلىٰ الأغنياء أو الفقراء- فتلاحظ فعل الله فيهم،

وكيف أنه وفق هذا، وكيف أنه مَنَّ علىٰ هذا، وكيف أنه حرم هذا من أجل اختبار صبره وكيف أنه.. وهكذا، والتفكر لا ينتهي تفكر في عينيك، في أذنيك، في أنفك، كيف تشم، وفي لسانك كيف تتكلم ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذّاريات، من آية: ٢٣]، ثم تتفكر في السماء والأرض، في السحاب، وفي المطر.. أشياء لا نهائية ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل، من آية: ١٨].

كنا في أول الطلب نقول عندما نسجد: سبحان ربي الأعلىٰ علىٰ سحابك، سبحان ربي الأعلىٰ علىٰ مطرك، سبحان ربي الأعلىٰ علىٰ شجرك، سبحان ربي الأعلىٰ علىٰ أنهارك، سبحان ربي الأعلىٰ علىٰ بحارك، سبحان ربي الأعلىٰ علىٰ.....؛ فنستمر نصف ساعة ونحن سجود نريد أن نعَدِّدَ النعم فنجدها لا تنتهي..؛ فيشعر الإنسان بعجزه.

«**وأما الفكرة في معاني الأعمال والأحوال فهي تسهل سلوك طريق الحقيقة**»: فعندما تفكر في الأعمال وفي الأحوال يَسهُل عليك الفناء في الله؛ أي أنك تخرج عن حد الرسوم، فترىٰ كل شيء حولك زائلًا فانيًا ولا ترىٰ في هذا الكون إلا قدرة الله ﷻ، وكل هذا إنما هو بالله، وتعيش في هذا الجو الذي فيه أن كل الحركات والسكنات وما يحدث في الأكوان من حولنا إنما هو بقدر الله وفعل الله ولا فعل للمخلوق في شيء من ذلك، وهذه مرحلة وسط، لكنها تبين الحقيقة، تبين أن الله علىٰ كل شيء قدير، وتبين أنه ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج، آية: ١٦]، وتبين أنه خلقنا وما نعمل، وتبين أشياء كثيرة، ولكن هي مرحلة بعدها مرحلة أخرىٰ، وهي أن تعود لنفسك حتىٰ تُراعي الرسوم الشرعية التي أمرَك الله بها من صلاة وصيام.. ومن البُعد عن المعاصي والمَنهِيات.

إذن الفكرة في معاني الأعمال والأحوال ستؤدي بك إلىٰ نِسبة كل شيء لله، والنسبة هذه نِسبة حقيقية، وهو ما سيسهل عليك سلوك طريق الحقيقة الذي هو الفناء عما سوىٰ الله.

«وإنما يُتخَلَّص من الفكرة في عين التوحيد بثلاثة أشياء:

١- **بمعرفة عجز العقل**»: فنحن لا نستطيع بعقلنا -وهو محدود- أن نستوعب غير المحدود.. فهناك عجز للعقل.. له حدود، يفهم، يطبق، يتدبر، يستنتج، لكنه لا يدرك كُنه الحقائق التي هي أكبر منه.

٢- «**وبالإياس عن الوقوف على الغاية**»: عندما تتيقن أنه لا يمكن التعرف علىٰ كنه الله سترجع إلىٰ نفسك.

٣- «**وبالاعتصام بحبل التعظيم**»: لو عرفت أن الله عظيم حق المعرفة ما بحثت البصيرة عن الله ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ [الزمر، من آية:٦٧]، ولو كان هناك تعظيم كما ينبغي لعرفت الحقيقة منذ البداية، والذي عطَّل البصيرة عن إدراك ذلك هو أنها ما زالت صغيرة؛ ظنت أنها تعلقت بربنا الكريم، وهو الكريم ولكن ليس ككرم المخلوقين، ربنا خالق السماوات والأرض، فهو ﷻ مفارق للأكوان..؛ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورىٰ، من آية: ١١].

«**وإنما تُدرَكُ لطائف الصنع بثلاثة أشياء:**

١- **بحسن النظر في مبادي المنن**»: دائمًا ترجع إلىٰ المنن التي مَنَّ عليك بها ربك وتحاول أن تتذكرها، منّ عليك بنعمة الإيجاد من العَدم، والإمداد من عُدْم، فأمدك بالحياة والسمع والبصر والكلام والقدرة والإرادة، وعلمك ما لم تكن تعلم ورزقك من الطيبات، ونجاك من ظلمة الكفر إلىٰ نور الإسلام والإيمان من غير حول منك ولا قوة... فلا حول ولا قوة إلا بالله حقًا وصدقًا.

٢- «**وبالإجابة لدواعي الإشارات**»: كل مِنّة وراءها إشارة، حيث إن الله ﷻ تجلىٰ في هذا الكون بأسمائه وصفاته؛ جعلك سميعًا بصيرًا حتىٰ تلتفت إلىٰ أنه إذا كنت أنت يا عاجز هكذا فما بالك بربك؟ فجعلك قادرًا وفي هذا إشارة إلىٰ قدرة الله الذي

يقول للشيء ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة، من آية: ١١٧]، الذي بقبضته السماوات والأرض.

٣- «**وبالخلاص من رق إتيان الشهوات**»: عندما تُخلص في البعد عن الشهوات يحدث نور في القلب، ولذلك قال أهل الله: إن قلة الكلام وقلة الطعام وقلة المنام وقلة الأنام. يساعدونك على ترك الشهوات؛ فمثلًا كلما تصوم كثيرًا تجد النور في القلب، ولذلك قال ﷺ: «**يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ، فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ**»[1]، الصوم يضيق موارد الشيطان في الدم ومساره ومجراه «**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الإِنْسَانِ مَجْرَىٰ الدَّمِ**»[2] تضيق عليه بالصوم يعني تخنقه وهو يدعوك إلى الشهوات.

بهذه الأشياء تتمكن دائمًا من رؤية لطائف الصنع، والبصيرة تنقل هذا إلى قلبك فيزداد نورًا ويقينًا.

وإنما يوقف بالفكرة على مراتب الأعمال والأحوال بثلاثة أشياء:

١- «**باستصحاب العلم**»: تَعَلَّمْ دائمًا، واحذر أن يتحول العلم إلى حجاب؛ إذا اغتررت به، فهو يوصلك إلى ربك إذا أخلصت فيه. إذن لابد كلما تعلمت شيئًا أن تجعله لله حتى يكون نورًا ولا يكون حجابًا، فالعلم يكون حجابًا بينك وبين ربك - إذا ما كان هذا العلم يؤدي بك إلى الغرور والتفاخر والتعاظم والنظر إلى النفس بأنك أصبحت شيئًا مختلفًا عمن حولك، لكن إذا جعلته لله فإن فيه معرفة.

٢- «**واتهام المرسومات**»: المرسومات نوعان: أشياء شرعية مثل الصلاة والزكاة والصيام وهذه لابد من القيام بها، لكنها تحتاج إلى التعلق بالله لا بها.

---

(١) متفق عليه، البخاري: ٥/ ١٩٥٠، برقم (٤٧٧٨)، ومسلم: ٢/ ١٠١٨، برقم (١٤٠٠).
(٢) متفق عليه، البخاري: ٢/ ٧١٧، برقم (١٩٣٣)، ومسلم: ٤/ ١٧١٢، برقم (٢١٧٤).

يا سائلي عن رسول الله كيف سها ❊ والسهو من كل قلب غافل لاه
قد غاب عن كل شيء سره فسها ❊ عما سوى الله فالتعظيم لله

يعني سيدنا رسول الله ﷺ وهو واقف يصلي -من شدة تعلقه بربه- حُجِبَ بينه وبين حركات الصلاة فظن الاثنين أربعة؛ هذا لم يحدث لأنه منشغل بالتفكر في الدنيا وأمورها مثلنا، لكن لأنه منشغل بالتفكر في الله قد غاب عن كل شيء سِرُّه..؛ فالسر درجة من درجات ترقي القلب.

فاتهام المرسومات الشرعية بأن تتعلق بالله الذي من أجله تفعل ولا تتعلق بالفعل؛ لا تنظر إلىٰ أنك تصلي ولا أنك صائم، ولكن انظر أنك تفعل هذا لله وبأمر الله لأجل أن يرضىٰ عنك، وانظر -من ناحية أخرىٰ- أنه هو الذي أقامك في الصلاة وفي الصيام، ليس ذلك من حولك وقوتك وإرادتك ورغبتك إنما هو من الله، فالله الذي خلق الصلاة وخلقك وخلق الصلاة لك، فإذا نظرت هكذا كأنك اتهمت المرسومات.

وهناك مرسومات أخرىٰ التي هي العالم حولنا.. مرسومات دنيوية سهل التخلص منها، لكن الذي ليس سهلًا الصلاة والصيام وسائر العبادات، ولذلك فإن كثيرًا من الناس ممن لا يفقهون.. والذين وصفهم النبي ﷺ للصحابة ﭫ فقال: «**يَخْرُجُ مِنْهُ قَوْمٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلاَمِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ**»[1] وهم الخوارج صفاتهم هكذا.. تعلقوا بالرسوم ونسوا الرب ﷻ.

٣- «**وبمعرفة مواقع الغِيَر**»: يعني الغيرة لله مثل سيدنا إبراهيم غار لله من الأصنام فحطمها، وكان رسول الله ﷺ لا يغضب إلا إذا انتُهِكَت حرمات الله، فإنه حينئذ

(١) متفق عليه، واللفظ للبخاري: ٦/٢٥٤١، برقم (٦٥٣٥)، وأخرجه مسلم: ٢/٧٥٠، برقم (١٠٦٧).

يغضب الغضبة لا تكون لنفسه[1]، ومنهم الذي جذبه جذبة شديدة أثرت في عنقه، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَبَذَ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً -قَالَ أَنَسٌ: فَنَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ- ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي عِنْدَكَ. فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ[2].

ومنهم من أسمعه كلامًا غليظًا وهو صابر وقد يبتسم ويحلم، أما إذا رأى أن حرمات الله قد انتهكت فإنه يثور ويغضب ويتمعر وجهه الشريف حُمرة.

إذا وفيت هذه الثلاثة فإنك تكون قد أدركت مراتب الأعمال والأحوال؛ حيث إن الغضب حالة، والرضا حالة، والتوكل حالة، والتسليم حالة...؛ أو بمعرفة مواقع الغير منك بأن الناس كلهم لا حول ولا قوة بهم، وأن الحول والقوة إنما هي لله.

---

(١) انظر شمائله ﷺ في: الترمذي في الشمائل المحمدية: ٣٤/١، والطبراني: ١٥٥/٢٢، والبيهقي في شعب الإيمان: ١٥٤/٢، وابن عساكر: ٣٤٣/٣.

(٢) متفق عليه، البخاري: ٢١٨٨/٥، برقم (٥٤٧٢)، ومسلم: ٧٣٠/٢ ، برقم (١٠٥٧).

بَابُ
التَّذكُّر

التذكُّر

أبنية التذكر ثلاثة

(١) الانتفاع بالعظة:

ينتفع بالعظة بعد حصول ثلاثة أشياء:
١- بشدة الافتقار.
٢- بالعمى عن عيب الواعظ.
٣- تَذَكر الوعد والوعيد.

(٢) الاستبصار بالعبرة:

تستبصر العبرة بثلاثة أشياء:
١- حياة العقل.
٢- معرفة الأيام.
٣- السلامة من الأغراض.

(٣) الظفر بثمرة الفكر:

تجتنى ثمرة الفكرة بثلاثة أشياء:
١- قِصَر الأمل.
٢- التأمل في القرآن.
٣- قلة الخلطة والتمني والتعلق والشبع والمنام.

بين يدي التذكُّر

فبعد أَنْ ذَكَرَ بِقِسْمِ البدايات: باب اليقظة، باب التوبة، باب المحاسبة، باب الإنابة، باب التفكر، يذكر هنا السادس من الأبواب العشرة التي تمثل قسم البدايات، وقسم البدايات واحدٌ من عشرة وكل باب واحدٌ من مائة، وهناك مائة خطوة مقسمة إلىٰ عشر مراحل أو طبقات أو أقسام، وكل واحدة من العشرة فيها عشرة أبواب أو خطوات، فنحن الآن في الطبقة الأولىٰ وفي الخطوة السادسة.

تيقظ الإنسان من غفلته وعرف حقيقة الدنيا وأنها إلى زوال، وأنها لم تبق لأحد من قبل، وهذه هي حقيقة اليقظة.

تيقظ وعرف أنه لا حول ولا قوة إلا بالله، وأنه لا حول ولا قوة به، ولا يستطيع أن يُحدِثَ في الكون إلا ما أراد الله وبإذن الله..؛ فإنه لا يكون في كونه إلا ما أراد.

تيقظ فعرف أنه عبد مُكَلَّف يجب عليه أن يأتمر بأمر ربه ﷻ فيقف عند أوامره ويفعلها، وعند نواهيه فينتهي عنها، وعند حدوده فلا يتعداها.

تيقظ فعرف أن هناك يومًا آخر نعود فيه إلىٰ الله وليست المسألة دنيا فقط والحساب يكون فيها وينتهي الأمر، وأنه كما نشأنا من تراب نعود إلىٰ تراب، ليس الأمر كذلك ولكن هناك يوم آخر للحساب، للثواب، للعقاب، يحقق فيه ربنا ﷻ وعده بالجنة ووعيده بالنار. جعلنا الله تعالىٰ من أهل الجنة وأبعدنا عن النار آمين.

تيقظ فعرف حقيقة الأمر. فإن حقيقة الأمرِ مع الله ﷻ: التسليم والرضا بما قد كتبه الله لك أو عليك. وحقيقة الأمر مع العباد: الرحمة.

وحقيقة الأمر مع النفس: الهِمة للعمل الصالح وللتصديق الصحيح.

حقيقة الأمر مع الشرع: أن يكون عندك سمع وطاعة ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة، من آية: ٢٨٥].

عندما يعرف الإنسان حقيقة الأمر فإنه يجب عليه أن **يبادر بالتوبة**.

يتوب من المعاصي حتى يدخل دائرة التكليف.

يتوب من السوىٰ -كل ما سوىٰ الله- حتىٰ يصل إلىٰ التوكل الصادق علىٰ الله. ويرجع عما هو عليه: يتوب من تقصيره في حقوق الله، ويتوب من هضمه حقوق الناس. ويهيئ نفسه للحياة الجديدة مع الله، ويترك ما قد مضىٰ وكان.

فإذا هو فعل ذلك فعليه أن **يحاسب نفسه** وأن يتذكر خطاياه، وأن يَعُدَّ نعمة الله حتىٰ يعجز عن عدها فيخضع له ﷻ - وهو باب المحاسبة.

فإذا فعل ذلك فلابد عليه من تنفيذ ذلك العهد الذي عاهده مع الله في التوبة، فالتوبة عهد، **والإنابة عمل** وتنفيذ للعهد، فليبدأ في تنفيذ عهده؛ فينخلع من دائرة المعصية إلىٰ دائرة الطاعة، ومن دائرة الظلمات إلىٰ دائرة النور، ومن دائرة التعلق بالسوىٰ -سوىٰ الله- إلىٰ أن يكون قلبه ليس فيه إلا الله.

بعد الإنابة يأتي دور **التفكر** ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل، من آية: ٤٤]، وقلنا في التفكر: إن البصيرة ترىٰ كما يرىٰ البصر، ولكن البصيرة من عيون القلب والبصر من عيون الجوارح، البصر ينظر ويتلفت ويطلب مراده حتىٰ يراه، والبصيرة أيضًا تطلب مرادها حتىٰ تراه، فالبصيرة تحاول أن تفعل شيئًا لله تصل به إليه.

والتذكر هو الوصول للشيء، يعني: كالعلاقة بين الإنابة والتوبة، فالتوبة نظر والإنابة عمل، كذلك التفكر فهو عبارة عن بحث، لكن التذكر جني الثمرة.

إذن التذكُّر بعد التفكُّر.. وبعد؛ فلا شيء يفيد إلا باليقظة لأنه لا تكليف علىٰ غافل.

بَابُ التَّذَكّر

«قال الله ﷻ: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر، من آية: ١٣]»: التذكر فوق التفكر فالشيخ لم يكتبها اعتباطًا، ولكنه فاهم أن التذكر فوق التفكر، ولذلك ذكر باب التذكر بعد باب التفكر، فالتفكر بحث وطلب، والتذكر رفع للحجاب أي تنفيذ لما حَصّلته من طلب.

«**وأبنية التذكر ثلاثة أشياء**: العناصر والمكونات:

١ - «**الانتفاع بالعظة**»: فعندما تُلْقَىٰ تؤثر في القلوب، والغافل لا تؤثر فيه العظة حتىٰ يتيقظ.

الموعظة تفعل بأهلها فعل السحر، يقول رسول الله ﷺ: «**إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْرًا**»(١). كان الصحابة -لأنهم متيقظون، وكلما تيقظت كلما كنت أقرب إلىٰ الله- يسمعون الموعظة فربما يموت أحدهم من شدة شوقه لربه، يريد أن يخرج من جسمه، يريد أن يخرج من هذا الكون من شدة اشتياقه للقاء ربه، هؤلاء جاهدوا في سبيل الله، هؤلاء الذين لما سمعوا أن محمدًا ﷺ قد مات قالوا: نريد أن نموت علىٰ ما مات عليه، فكانت الموعظة إذا جاءتهم أثرت فيهم.

فحتىٰ تجني الثمرة ويُرفع الحجاب لابد أن تهيئ نفسك للاستفادة بالموعظة بحيث أن تنزل الموعظة عليك فإذ بها تثيرك لله وتدفعك إلىٰ الأمام وتُغير حالك.

---

(١) متفق عليه، البخاري: ٥/١٩٧٦، برقم (٤٨٥١)، ومسلم: ٢/٥٩٤، برقم (٨٦٩).

٢- والاستبصار للعبرة: لابد أن يكون عندك طلب لتُبصر العبرة، فالعِبرة وراء كل شيء.

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ * تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ

فمثلًا، إذا شتمك أحد تعلم أن الله قد سلطه عليك لاختبارك أنت، فتقول: سبحانك تبت إليك، فأنت لا تراه ولا تسمعه فلا ترى إلا قدر الله ومن ورائه حكمته، ويحيط بذلك كله لطفه ﷻ، لو أن الناس فهمت ذلك لفازوا بسعادة الدارين، لكن الناس نسيت الله ونسيت حوله وقوته وتعتمد على حولها هي وقوتها، وعندما يشتمه أحد يعتبرها إهانة ولابد أن يردها مضاعفة، ولو تأنَّى، وكان رده بالمثل أو لو صبر فهو خير له، قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾ [النحل، الآيتان: ١٢٦-١٢٧]، يأخذ بيدك إلى الإحسان رويدًا رويدًا، شيئًا فشيئًا.

لكن الحقيقة أن هذا الرجل لم يسبك ولم يشتمك ولا فعل شيئًا، ولكن الله يمتحنك وأنت ترسب في الامتحان كل مرة! فإذا سئل كم مرة رسبت؟ يقول: ولا مرة وهو يفشل مع الله كل يوم..! يعطون في الكليات سنتين أو ثلاثة فرصة إعادة ثم يفصلونك، لكن ربنا يعطيك كم فرصة! مفتوحة إلى الغرغرة.. انظر إلى سعة رحمة الله الواسع.

٣- «والظفر بثمرة الفكرة»: الثمرة هي رفع الحجاب.

«وإنما ينتفع بالموعظة بعد حصول ثلاثة أشياء:

١- بشدة الافتقار»: لابد أن تشعر أنك محتاج إلى الموعظة.

٢- «وبالعمى عن عيب الواعظ»: يقول سيدنا علي رضي الله عنه: «لا يضرك من يقول..؛ اسمع ما يقال»..؛ فالله ﷻ يُجري على لسانه ما أراد أن يبلغه للناس، انتفع بما يقال

حيث هو الذي وصل إليك أنت، لا يضرك بعد ذلك من القائل أهو فاسق.. طيب.. شرير.. مخطئ.. مصيب.. فكل ذلك على نفسه، لكن الموعظة نفسها تَدَبَّرْها ولا يمنعك عيب الواعظ وتقول: إنه يخطئ في النحو.. إنه يخطئ في القرآن.. لا يعلم شيئًا في الحديث.. إنه جاهل، اسمع ماذا يقول! يقول لك: اتق الله. تمسك بها وطبقها ولا يضرك ممن خرجت، ولا تنظر إلى شخص الواعظ وحاله أبدًا.

٣- «**وتذكُّر الوعد والوعيد**»: لابد أن تتذكر وَعْد الله بالجنة، فيدفعك إلى الرجاء في الله، وتكون في حالة رجاء، ولكن هذا الرجاء لا تستهين معه بالمعصية فتقول ربنا غفور رحيم وتنغمس فيما يغضبه.. هناك وعيد، والوعيد ينشئ الرهبة، والرهبة تنشئ خوفًا، ولكن لا تخف حتىٰ تيأس من رحمته! لأنه رحيم وواسع، واحذر أن تقول إنه قد غضب عليّ فلا فائدة.. كذلك لا تعكسها معتمدًا علىٰ سعة عفو الله تعالىٰ ورحمته.. كن بين الرجاء والخوف وهذه هي الحكمة ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة، من آية:٢٦٩].

«**وإنما تستبصر العبرة بثلاثة أشياء:**

١- **بحياة العقل**»: عقل تعرف به الحسن والقبيح، فالحسن ما حسَّنه الله، والقبيح ما قبَّحه الله. الحسن: الواجبات كالصلاة والصوم والحج.. إلخ، والمندوبات والمباح كل هذا حسن؛ لأن الله ﷻ حسَّنه وهذا هو حياة العقل، فحياة العقل تتم بالتحسين والتقبيح، ولكن ليس من ذاته إنما من الشرع.

السرقة، الزنا، الربا، كلها أمور قبيحة من القاذورات والعاقل خصيم نفسه، فإذا وهبك الله تعالىٰ عقلية فارقة تفرق بين الحسن والقبيح، بين الحق والباطل تجد أن بصيرتك قد أنارت، وهذا هو المقياس الذي ستسير عليه.

٢- «**ومعرفة الأيام**»: الالتفات إلىٰ أن اليوم الذي يذهب لا يأتي مرة أخرىٰ، الالتفات إلىٰ أننا نريد أن نعمر أوقاتنا ونعمر أيامنا بكل ما يقربنا إلىٰ الله تعالىٰ،

ومعرفة أيام الله وشأنه فيك وفي الآفاق؛ فتجعلك عاقلًامدركًا لزمانك ووقتك فتقوم بحق وقتك وواجبه.

الإمام الشافعي يقول: صاحبت الصوفية فتعلمت منهم كلمتين: الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك، ولا تحزن على شيء فاتك.

٣- **«والسلامة من الأغراض»**: التخلية والتحلية؛ تُخَلِّي قلبك من القبيح، وتحليه بالصحيح، تخرج من قلبك التعلق بالدنيا، وتملأه بالتعلق بالله وصفات الله من جمال وجلال، فتتخلق بالجمال وتتعلق بالجلال، كن رحيمًا عفوًا، ولا تكن منتقمًا أو متكبرًا أو جبارًا، ولكن تعلق بصفات الله تعالىٰ المنتقم المتكبر الجبار، وادع ربك أن ينتقم لدينه وينصر أولياءه، ويرد كيد أعدائه في نحورهم، ويجعل ثأرنا علىٰ من ظلمنا ويجعل الدائرة عليهم ويشفي صدور قوم مؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم.

«وإنما تجتنى ثمرة الفكرة بثلاثة أشياء:

بِقِصَرِ الأمل»: الإنسان يخطط الخطة لسنوات طويلة، وهو لا يدري أنه يموت غدا..؛ « واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا»[1]، فهذه الليلة قم بالليل.. هذه آخر فرصة، واعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا يعني الذي ضاع منك اليوم تحصله غدًا، وإذا ضاع غدًا تحصله بعد غد، وهذا ليس معناه أن نترك الدنيا ولكن معناه أن لا نتعلق بها، اجعلوها في أيديكم ولا تجعلوها في قلوبكم، هناك فرق كبير، كن قويًا ﴿ **ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ** ﴾ [الحج: ٤١]، **«الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ. احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلاَ تَعْجِزْ،**

(١) مسند الحارث، ونصه: «احرز لدنياك» برقم (١١١٣)، عن عبد الله بن عمرو موقوفًا. وأخرجه ابن أبي الدنيا في إصلاح المال، برقم (٤٩) بلفظ: «احرث».

وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلاَ تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا. وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ. فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»[1]، اجعل الدنيا كلها في يديك ولكن لا تفرح بالموجود ولا تحزن علىٰ المفقود، يمكن أن تتركها في لحظة لله من غير تأويل ولا تردد، وأنت في نيتك أنك تبدأ في تحصيلها مرة أخرىٰ لله أيضًا.

انظر إلىٰ من خرجوا مهاجرين ينصرون الله ورسوله.. خرجوا من أموالهم وديارهم فماذا كان في شأنهم؟ مدحهم الله ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر، آية: ٨]، هؤلاء هم الصادقون حقًا.. لماذا؟ تدبر.. وهؤلاء الأنصار ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر، آية: ٩]، وصلوا إلىٰ هذا المدح والمديح والمدحة من رب العالمين؛ لأنهم جعلوا الدنيا في أيديهم، لكنهم لم يجعلوها أبدًا في قلوبهم، فإذا تعلقت القلوب بالدنيا أذلتها، فلابد أن تخرج الدنيا من قلوب الناس لا من أيديهم.

نحن الآن نريد أن نُحَصِّل الدنيا كلها، ونحصل ما استطعنا من قوة، تعميرًا لا تدميرًا، نريد أن نأتي بها ولكن في أيدينا وليس في قلوبنا ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزمر، من آية: ١٦]، العراق لم يكن لديه أسلحة دمار شامل فغزوها، كوريا كان عندها (القنبلة الذَّرية) فلم يغزوها، نريد أن نقول لهم: ارتدعوا فابقوا مكانكم! ولكن لا نستعملها مثلهم كما استعملوها في (هيروشيما وناجازاكي)[2]، القوة حين تكون تحت يد المسلمين لردع المعتدين فهذا شأن آخر.

---

(١) أخرجه مسلم: ٤/٢٠٥٢، برقم (٢٦٦٤).

(٢) موطنان باليابان، قُذِفا بالقنبلة الذرية إبان الحرب العالمية الثانية، فأتت علىٰ الأخضر واليابس. وما زالت الآثار إلىٰ اليوم باقية.

كيف نصل إلىٰ قصر الأمل؟ اجلس بعد العشاء ثلاث دقائق وأغمض عينيك وتخيَّل نفسك في القبر وأنك مت، ولا تزد علىٰ هذه الدقائق؛ فالله ﷻ يريدك أن تعمر الدنيا ويريدك أن تعبده.. إنما هذا دواء تأخذ منه الجرعة المناسبة حتىٰ تتزن معك الأمور.

١- «**والتأمل في القرآن**»: كلما تتأمل فيه كلما خرجت بمعنى جديد، كلما تدبرت فيه كلما تجد معانٍ راقية وحكم رائقة وتتأسس به وينفتح معك، ولا يوجد كتاب هكذا أبدًا! يجعلك ترفع الحجاب وهذا يجعل هناك صلة بينك وبين الله.

٢- **وقلة الخلطة والتمني والتعلق والشبع والمنام**: قلة الأنام، وقلة الطعام، وقلة المنام، وقلة الكلام، تُوصِلُكَ إلىٰ السلام وتُخرج من قلبك الحطام. قلة الأنام يعني: الناس؛ لا تخالط إلا الصحبة الطيبة، يقول رسول الله ﷺ: «**الْمَرْءُ عَلَىٰ دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**»(١) ﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [التوبة، من آية: ١١٩]، يعني اختاروا الصحبة لأن البيئة تؤثر في الإنسان، ويروي لنا رسول الله ﷺ: «**كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا. فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَىٰ رَاهِبٍ. فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا. فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لاَ. فَقَتَلَهُ. فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً. ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ. فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ. فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ. وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ انْطَلِقْ إِلَىٰ أَرْضِ كَذَا وَكَذَا. فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللهَ فَاعْبُدِ اللهَ مَعَهُمْ..**»(٢) إلىٰ آخر الحديث.. يؤخذ منه أن باب التوبة مفتوح حتىٰ بعدما قتل مائة، وأنه لابد أن يُغير البيئة أي: الصحبة، فالصحبة عليها درجة كبيرة.

---

(١) أخرجه أحمد، وأبو داود: ٤/٢٥٩، برقم (٤٨٣٣)، والترمذي: ٤/٥٨٩، برقم (٢٣٧٨) وحسَّنه، وصححه الحاكم في المستدرك: ٤/١٨٨، برقم (٧٣١٩).

(٢) أخرجه مسلم: ٤/٢١١٨، برقم (٢٧٦٦).

أَلْقَاهُ فِي الْيَمِّ مَكْتُوفًا وَقَالَ لَهُ * إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَبْتَلَّ بِالْمَاءِ

هذا تكليف بما لا يطاق! فلابد من الصحبة الحسنة الطيبة؛ لأن الله أمر بها قال «مع» ولم يقل «من» الصادقين ﴿ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [التوبة، من آية: ١١٩]، يعني: كن صادقًا واحرص على صحبة الصادقين...؛ تُقَلِّل الكلام وتُقَلِّل الطعام وتُقَلِّل المنام فيخرج من قلبك الحطام ويتجلى فيه السّلام ﷻ، سلام في النفس، والسلام من أسماء الله، وقلة التمني والتعلق؛ لأنك تتمنى الحطام وتتعلق بما سوى الله... نحن نريد الله فقط.

بَابُ
الاعْتِصَامِ

درجات الاعتصام

(١) اعتصام العامة بالخبر.

* الاعتصام بحبل الله تعالى.

استسلامًا وإذعانًا وتصديق الوعد والوعيد، وتعظيم الأمر والنهي، وتأسيس المعاملة على اليقين والإنصاف.

(٢) اعتصام الخاصة بالانقطاع.

* التمسك بالعروة الوثقى.

وهو صون الإرادة قبضًا، وإسبال الخُلق على الْخَلق بسطًا ورفض العلائق عزمًا.

(٣) اعتصام خاصة الخاصة بالاتصال.

* الاعتصام بالله.

وهو شهود الحق تفريدًا بعد الاستحذاء له تعظيمًا، والاشتغال بالحق تعالى قربًا.

بين يدي الاعتصام

يذكر الاعتصام سابعًا بعد أن ذكر اليقظة، وأنك أيها المؤمن لا يمكن أن تبدأ الطريق إلا إذا تيقظت؛ لأن النائم لا تؤثر فيه الموعظة ولا تصل إلىٰ قلبه، ولا يصل إلىٰ وجدانه الكلام الطيب؛ ولذلك لا يستجيب، فلابد عليك إذا أردت أن تبدأ مع الله أن تتيقظ، وقلنا باختصار: أن اليقظة إنما هي معرفة حقيقة الدنيا وأنها إلى زوال، فنحن نرى الموت في كل يوم ونشاهد أن ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [الرحمن:٢٦]، وإذا عرفت هذا عرفت أنه لا يبقىٰ غير الله تعالىٰ ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن:٢٧]، فمن عرف نفسه بالفناء عرف ربه بالبقاء، فحقيقة الدنيا أنها جسر إلىٰ الآخرة وأنها دار ابتلاء وتكليف وليست دار تشريف، ولذلك لا بد فيها من العمل المصحوب بالمراقبة ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة، من آية: ١٠٥]، ويقول ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [البقرة، من آية: ٢٥]، وفي حديث الحسن البصري ﵀: «إن أناسًا قد غرَّهم بالله الغرور يقولون نحن نحسن الظن بالله لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل»[1].

فلابد من العمل لأن حقيقة الدنيا هي أنها مزرعة للآخرة. وأنها جسر يعبر فيه المؤمن إلى الآخرة، وكذلك لابد أن تجعلها في يدك ولا تجعلها في قلبك، فلا تفرح للموجود ولا تحزن على المفقود، وذلك أن الدنيا ليست غاية علمنا ولا مبلغ آمالنا؛ لأنها فانية، ولأنها جسر ولأنها مزرعة، ولأن الله ﷻ هو الباقي الذي نرجع إليه جميعًا في يوم يُنبئنا فيه فيما كنا فيه نختلف ويحاسبنا فيه بالثواب.

---

(١) سبق تخريجه ص: ٢٩.

اليقظة: أن تلتفت إلى الحقائق وأنه لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، فلا حول ولا قوة بك، ولا يكون في كونه ﷻ إلا ما أراد، فإذا تيقظت هذه اليقظة كنت مستعدًا لأن تعلم حقائق كثيرة جدًا يسمونها: الكلمات العشر: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، وأَسْتَغْفِرُ اللهَ، وَحَسْبُنَا اللهُ، وَمَا شَاءَ اللهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَإِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

كل هذه حقائق وليست محض ذكر تعودنا عليه ففقد معناه، بل إنها حقائق لابد أن تعيش فيها.

ثم ثنى بالتوبة؛ لأنه حينئذٍ لابد أن تعاهد الله على أن تنقطع عن المعاصي وأن تنتقل من دائرة سخطه إلى دائرة رضاه، وندعو ونقول: اللهم انقلنا من دائرة سخطك إلى دائرة رضاك.

والتوبة تبدأ بالتوبة من المعاصي ورَدّ حقوق الناس والاستغفار، وتنتهي بالتوبة عن السوى، يعني ما سوى الله -يعني تُطَلِّقُ من قلبك كل ما سوى الله، وتُخرج من قلبك غير الله ﷻ- فتصبح بذلك تائبًا إليه راجعًا إليه ﷻ.

ثم تكلم عن المحاسبة ، فإنه بعد ذلك العهد ينبغي عليك أن تفتح دفاترك وأن تُقَلِّبَ فيها وتحاسب نفسك «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا»[1].

ثم تكلم عن الإنابة وهي أن تنفذ التوبة؛ فالتوبة عهدٌ نظري، والإنابة وضع عملي.

ثم بعد ذلك تكلم عن التفكر وبعده التذكر، التفكر فيه طلب حيث تطلب فيه مقصود ربك، ثم التذكر أن ترفع الحجاب بينك وبين ما تذكرت فتعمل، فالتفكر والتذكر كالتوبة والإنابة: عزمٌ في القلب ثم فعل بالجوارح.

---

(١) سبق تخريجه ص: ١٠٦.

بابُ الاعتصام

وهنا في هذا الموضع يتكلم عن الاعتصام. فقال ﷺ:

«قال الله تعالىٰ: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾ [آل عمران، من آية: ١٠٣]، **وقال تعالىٰ:** ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ﴾ [الحج، من آية: ٧٨].. ﴿ بِحَبْلِ ٱللَّهِ ﴾ للمبتدئين ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ ﴾ للمنتهين؛ فهي أرقىٰ.

«حبل الله» كما ورد عن: ابن عباس، وابن زيد، ومقاتل، وابن قتيبة ﷺ قالوا: دين الله، وقالوا: القرآن، فالنبي ﷺ وهو يصف القرآن قال: «**إِنَّ هذا الْقُرْآنَ مَأْدَبَةُ اللهِ فَاقْبَلوا مِنْ مَأْدَبَتِهِ ما اسْتَطَعْتُمْ، إِنّ هذا الْقُرْآنَ حَبْلُ اللهِ، وَالنُّورُ الْمُبينُ، وَالشِّفاءُ النّافِعُ، عِصْمَةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ، وَنَجاةٌ لِمَنْ تَبِعَهُ، لا يَزيغُ فَيُسْتَعْتَبُ، وَلا يَعْوَجُّ فَيقومُ، وَلا تَنْقَضِي عَجائِبُهُ، وَلا يَخْلَقُ مِنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ**»[1].

صفة من صفات القرآن أنه حبل الله المتين ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران، الآيتان: ١٠٣-١٠٤].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك: ١/٧٤١، برقم (٢٠٤٠)، عن عبد الله. وقال: هذا حديث صحيح الإسناد.

أول الكلام في سورة الحج يقول: ﴿وَجَـٰهِدُوا﴾.. ﴿وَجَـٰهِدُوا فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ﴾ إيمان وعمل، وكذلك دائمًا فلابد من العمل وهذا هو حبل الله، حبل الله الأوامر والنواهي، الدين هو حبل الله، والقرآن حبل الله المتين ﴿وَٱعْتَصِمُوا بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج، من آية: ٧٨].

إذن الأولى ﴿وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾ والثانية ﴿وَٱعْتَصِمُوا بِٱللَّهِ﴾ أرقى لأن الاعتصام بالله ﷻ يأتي بعد ما تنتهي من الاعتصام بحبله، فهذا القرآن من عند الله لا يستطيع أحد أن يؤلفه ولا في ألف سنة لأنه ما زال إلى اليوم يفتح مغاليقه ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِي ٱلْـَٔافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت، من آية: ٥٣].

﴿وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران، من آية: ١٠٣] على كل المستويات.. لكن هناك قال: ﴿وَٱعْتَصِمُوا بِٱللَّهِ﴾ لم يقل هنا «جميعًا»؛ لأن هؤلاء هم أهل درجة الإحسان العليا، ﴿وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾ قال: ﴿جَمِيعًا﴾ لأنه مذكور فيها «حبل»؛ فلابد أن الكل يعتصم به؛ يلتزم بالإيمان بالله، الصلاة، الصيام، الأمر بالمعروف، النهي عن المنكر، عدم ارتكاب المعاصي.. ليس فيها درجات ﴿جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

والمعيار والآمر الناهي، الذي نخضع لأحكامه مهما كانت هو القرآن.. الذي بيني وبينك القرآن، فرضيناه حكمًا ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، وهناك لأنها طائفة خاصة ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ [الواقعة: ١٣-١٤] هذه الخاصة.

﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ درجات.. ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٣].

«**الاعتصام بحبل الله تعالىٰ**»: هي الدرجة الأولىٰ التي لابد أن نشترك فيها كلنا.

«**المحافظة علىٰ طاعته مراقبًا لأمره**»: فلابد أن تطيع أمره.

«**والاعتصام بالله: هو الترقي عن كل موهوم والتخلص من كل تردد**»: لأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، وهذا العالم بأجمعه وتفصيله عالَم لا حول فيه ولا قوة؛ لأنه عالَم حادِث مخلوق، ولأنه عالم فان غير باق، ولأنه عالَم محتاج إلىٰ غيره، ولأنه له بداية وله نهاية، ولأنه ليس مقصودًا لذاته.. إذا وضعنا هذا في مقابلة الله الباقي القديم الأول الآخر الظاهر الباطن الذي هو بكل شيء عليم وعلىٰ كل شيء قدير..، فأين الموهوم وأين الحقيقة؟!

الحقيقة الثابتة: الله، وأما الموهوم هذا الذي نظنه، ولا نعرف الغيب فيه، ولا نقدر علىٰ أمر أنفسنا، ولا ندري كيف ننام ولا كيف نقوم.. فما هذا؟ موهوم.. فإذا ترقيت من الموهوم إلىٰ الحقيقي فقد بدأ نور المعرفة يصل إلىٰ قلبك، وأصل طريق الله المعرفة.

عند النصارىٰ تجد من يقول لك: أصل طريق الله المحبة، وعندنا المحبة وسيلة وعمل من الأعمال نعمله لنصل إلىٰ المعرفة.

المعرفة بالله هي الكنز الكبير، المعرفة هي أساس الصلاة والصوم والزكاة، الحقيقة هي الله الذي من أجله نصلي، ومن أجله نحب، ومن أجله نكره، ومن أجله تكون أعمالنا كلها الترقي.

الذي في قلبه شك لا يصل إلىٰ المعرفة.. الذي في قلبه شك لم يعتصم بالله؛ لأن العصمة معناها الحماية، واعتصِم يعني: احتمِ..؛ ومن احتمىٰ بالله تحصن وأصبح في حصن، ولذلك فإن الحصون نسميها العواصم.

جاء أعرابي إلىٰ سيدنا معاذ ﷺ يسأله: «أفرأيت رجلًا كثير الصيام كثير الصلاة يقوم الليل ويذكر الله كثيرًا ولكن في قلبه يَرِدُ الشك» أي يتشكك «أهو علىٰ الحق أم علي الباطل»، قال معاذ: «يتسلط الشك علىٰ عمله فيدمره» قال له: «أرأيت رجلًا قليل الصلاة قليل الصيام كثير المعاصي وفي قلبه يقين» فسكت معاذ.. فنظر إليه الأعرابي وقال له: «لئن كان الأول يدمر عمله فلابد أن الثاني يدمر المعصية».. إذا كان الأول -التردد- يدمر العمل، يكون الثاني -اليقين- يدمر المعصية.. فقال: «فَقِهَ الرجل».

إذن التردد مصيبة، ونسأل الله ﷻ أن يزيل من قلوبنا النفاق والشقاق وسوء الأخلاق والشك والريب، وهذا نجده دائمًا في دعاء الصالحين؛ لأن الشك عندما يخرج من قلبك ويستقر فيه اليقين فيتسلط علىٰ المعصية التي تحيرنا ويدمرها، أما كثرة العبادة مع قلة اليقين فإن المعصية تُدَمّرُ العمل، والتردد يدمر الكل.

«**والاعتصام علىٰ ثلاث درجات**»: العوام، والخواص، وخواص الخواص.

«**اعتصام العامة بالخبر**»: أي بالكتاب والسنة التي تعرف بها الأوامر والنواهي وتلزمها- «**استسلامًا**»: لأنك سلمت قيادك لمن آمنت به نبيًا من عند الله وهو خير نبي أرسل ﷺ، وهو المصطفىٰ الكريم أول ما تسمع: قال الله، أو: قال رسول الله.. انتهىٰ الأمر ولا جدال.

«**وإذعانًا بتصديق الوعد والوعيد**»: الوعد وهو الجنة، والوعيد وهو العقاب -والعياذ بالله- وربنا ﷻ من أسمائه: الكريم، من أسمائه: الواسع، فالله ﷻ لأنه كريم وواسع فتح باب الوعد حتىٰ غطّىٰ علىٰ باب الوعيد، وفتح باب الرجاء حتىٰ غطىٰ علىٰ باب الخوف، وخاطبنا بالجمال حتىٰ غطىٰ علىٰ الجلال.. فنحن ضِعاف، ولكن يجب عليك أنك تخشىٰ، عَنْ عَائِشَةَ ﷺ أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّىٰ تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ اللهِ وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ

مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: «**أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**»[1]. هو يعلمك أن كثرة هذا الخير كله وهذه النعمة كلها لا يجوز معها أن تبارزه بالمعصية، استحِ! فسعة رحمة الله لا تؤدي بك إلا إلىٰ الطاعة وليس إلىٰ المعصية.. تقول: يا كريم يا رب، يعني أنت لطيف بي كل هذا اللطف وأنا أعصيك! أين أذهب؟!! ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد، من آية: ٤]، ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾ [النساء، من آية: ١٠٨].

إذن لابد علينا أن ندرك هذه الحقيقة، سعة الوعد. سيدنا رسول الله ﷺ -فيما أخرجه البخاري عن: عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو رضي الله عنهما يَقُولُ: «**أَرْبَعُونَ خَصْلَةً أَعْلاَهُنَّ مَنِيحَةُ الْعَنْزِ، مَا مِنْ عَامِلٍ يَعْمَلُ بِخَصْلَةٍ مِنْهَا رَجَاءَ ثَوَابِهَا وَتَصْدِيقَ مَوْعُودِهَا إِلاَّ أَدْخَلَهُ اللهُ بِهَا الْجَنَّةَ**». قَالَ حَسَّانُ[2]: فَعَدَدْنَا مَا دُونَ مَنِيحَةِ الْعَنْزِ مِنْ رَدِّ السَّلاَمِ، وَتَشْمِيتِ الْعَاطِسِ، وَإِمَاطَةِ الأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ وَنَحْوِهِ، فَمَا اسْتَطَعْنَا أَنْ نَبْلُغَ خَمْسَ عَشْرَةَ خَصْلَةً»[3].

«مَنِيحَةُ العنزِ» يعني أن يكون عندي ماعز أعطيتها لجاري طوال النهار لكي يحلبها ويشرب لبنها هو وأولاده ويرجعها لي آخر النهار، الماعز لم تنقص شيئًا واللبن كذلك -ففي اليوم الثاني أستطيع أن أحلبها- مصنع رباني تشرب وتأكل فيتحول الدم إلىٰ لبن ﴿ سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ [النحل، من آية: ٦٦].. يعني المجهود الذي عملته والخسارة التي خسرتها لا توجد! في قائمة أربعين خصلة أعلاها منيحة العنز وهي شيء بسيط فكيف بما تحت منيحة العنز، أذهلهم الحديث! فتدارسوا ما هذا الذي تحت منيحة العنز! حتىٰ يستفيد من بعدهم «فَمَا اسْتَطَعْنَا أَنْ نَبْلُغَ خَمْسَ عَشْرَةَ

---

(١) سبق تخريجه، ص: ٨٢.

(٢) أحد الرواة، وهو: حسان بن عطية المحاربي مولاهم، ثقة فقيه عابد، من الطبقة الرابعة من التابعين، مات بعد العشرين ومائة. تهذيب التهذيب: ١٢٠٤.

(٣) أخرجه البخاري: ٩٢٧/٢ برقم (٢٤٨٨) كتاب الهبة وفضلها، باب فَضْلِ الْمَنِيحَةِ.

خَصْلَةً»، يتدارسون فلم يحصِّلوا سوىٰ خمسة عشرة خصلة وليس أربعين.

ألَّف فيها شيخنا الشيخ عبد الله الغماري -في شرح هذا الحديث- كتابًا أسماه «تمام المِنَّة في الخصال الموجبة للجنة» وحاول أن يعد الأربعين خصلة من الأحاديث، حديث يقول لك: «**تَبَسُّمُكَ في وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ**» التبسم؛ فهذه أخف من منيحة العنز: «**تَبَسُّمُكَ في وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَأَمْرُكَ بِالمَعْرُوفِ ونهيُكَ عن المُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وإرْشَادُكَ الرَّجُلَ في أَرْضِ الضَّلالِ لَكَ صَدَقَةٌ، وبَصَرُكَ لِلرَّجُلِ الرَّدِيءِ البَصَرِ لَكَ صَدَقَةٌ، وإمَاطَتُكَ الْحَجَرَ والشَّوْكَ والعَظْمَ عن الطَّرِيقِ لَكَ صَدَقَةٌ، وإفْرَاغُكَ مِنْ دَلْوِكَ في دَلْوِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ**»[1]، فهو سبحانه واسع كريم فلا يستحق منا أن نعصاه؟! فيجب أن يحدث حياء عندنا من الله.

«**وتعظيم الأمر والنهي**»: لابد أن نعظم الأمر والنهي حتىٰ نصل إلىٰ درجة الاعتصام بحبل الله.

«**وتأسيس المعاملة علىٰ اليقين**»: حتىٰ لا يكون فيها أي شك،

«**والإنصاف**» -العدل- «**وهو الاعتصام بحبل الله**».

«**واعتصام الخاصة بالانقطاع**»: يترقىٰ درجة ولا يقف علىٰ أن يصلي ويصوم ويبعد عن المعاصي، ولكن عليه أن يقطع أمر الدنيا من قلبه، فلا يفرح بالموجود ولا يحزن علىٰ المفقود، وتكون الدنيا في يده ولا تكون في قلبه، ويكون زاهدًا.

سألوا أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: رجل عنده ألف درهم أزاهدٌ هذا؟ قال: إذا لم يفرح بزيادتها ولم يحزن علىٰ نُقصانها فهذا هو الزهد.

إذن لابد أن الدنيا تأتي في يديه أولًا ثم يزهد فيها.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، ص٣٠٧، برقم (٨٩١)، والترمذي: ٣٣٩/٤، برقم (١٩٥٦) وقال: حسن غريب. وابن حبان: ٢٨٧/٢، برقم (٥٢٩).

«**وهو صون الإرادة قبضًا**»: أي لا تريد شيئًا مع الله.

قالوا لأبي يزيد البسطامي -وكان مجذوبًا-: ماذا تريد؟ قال: أريد ألا أريد.

قبض إرادته يعني نفاها وألغاها فلم تبق إلا إرادة الله فيه، وهذا هو التسليم والرضا، فالاعتصام بالله يكون بقبض الإرادة، يعني تصون إرادتك وتحميها بأنك تقبضها، وتقبضها معناها تلغيها، وتلغيها معناها أنك تريد ألا تريد.. إذن فمن المُريد؟ الله.. هو الذي يريد وليس أنت، النتيجة: تسليم ورضًا وتوكل، والتسليم والرضا يجعلك أسعد الخلق؛ لأنك لا ترىٰ إلا الله في كل شيء.

«**وإسبال الخُلق علىٰ الخَلق بسطًا**»: تجعل خُلقك يغطي الخلق كلهم صالحهم وطالحهم، مؤذيهم ونافعهم، خيرهم وشرهم! فخُلُقك لابد أن يسع الجميع فإذا جاء أحدهم يشتمك؛ أهل الله يعلمون أن هذا اختبار لهم فلا يأتون باللوم عليه بل علىٰ أنفسهم وتقصيرها، أو يقول له: علمني من الذي حرك لسانك بالأذية؟ ومن الذي حرك جوارحك بالبلية؟ هذا شيء مختص بي أنا، هل أنا فعلت شيئًا أو أن الله تعالىٰ يريد أن يختبرني أو يريد أن يرقيني أو يرىٰ إذا كنت سأصبر أم لا؟ إذن هناك شيء الله يريده.

«**ورفض العلائق عزمًا**»: يكون عندك عزيمة أنك تقطع العلائق التي بينك وبين الدنيا.. فإذا انقطعت حصل حرية، الحرية عندهم ليست عدم الرق أو التفلّت الغربي، الحرية عند أهل الله هي قطع العلائق؛ لأنه لما قطعت العلائق أصبحت حُرًّا من أن الشهوة تلعب بي، والمعصية تستأسرني، والفتن توقعني في ورطة تحجبني عن الله ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [آل عمران، من آية: ١٤]، والشهوات عبارة عن علائق مع الدنيا، والعلائق قيود، فالمُقَيَّد ليس حُرًّا..؛ إذن الحرية هي التعالي علىٰ الشهوات والدنيا.. الحرية هي التعلق بالله.

كانوا في القرون الثلاثة الأولىٰ علىٰ فطرتهم ولذلك كانت تؤثر فيهم

الموعظة.. بعد القرون الثلاثة الأولىٰ التي قال فيها سيدنا رسول الله ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ..»[1] أصبح الشيخ ينظر للمريد يعرف أنه عنده علائق، وتكون مهمة الشيخ كيف يصل بالمريد عن طريق الذِّكْر والتربية والخلوة إلىٰ قطع العلائق حتىٰ يصبح حرًّا؛ ولذلك الشيخ لما يصل به إلىٰ هذا الحد يقول له: عرفت فالزم، وقد يفوق التلميذ الشيخ في الدرجة عند الله، ولكن لا يتم ذلك إلا بعد قطع العلائق.. مما يوجد اليقين والالتزام والحرية عند السالك.

سيدنا عبد القادر الجيلاني كان يأكل بطة، فدخلت عليه امرأة قالت له: أتحرم ابني من النوم والأكل والشرب حتىٰ ضَعُف.. وتأكل بطة؟! فأشار إلىٰ البطة فقامت! قال لها: عندما يكون ابنك هكذا..! يعني أحيانا الشيخ يوصلك لحد معين ثم يتركك، ممكن تعلو عليه إذا كان عندك همة عالية.. فمُهمة الشيخ أن يقطع عندك العلائق.. لا تأتي تقول: يأكل البطة وأنا لا آكل.

إذا تعلق قلبك بالله صرت عبدًا ربانيًا تقول للشيء: كن؛ فيكون؛ لأنك سوف تقبض إرادتك فتصير بإرادة الله راضيًا.. مهما كانت الأحداث والمصائب والبلاوي التي حولك فإنها لا تهز ثقتك بربك، لا ضياع في وسط الأحداث.. ولكن رضا وتسليم، وفي الوقت نفسه هناك قوة؛ فنعرف الحق حقًّا، ونعرف الباطل باطلًا، ولكن لا نتردد ولا يدخل في قلبنا الريب والشك والحيرة، فكل هذه حجب ومدمرات للأعمال الصالحات، فيكون هناك يقين بالله.. ثبات.. معرفة للحقيقة لا يوجد تردد، وفي الوقت نفسه هناك تسليم ورضا، وكل هذا لا يجعلنا ننام أبدًا بل يجعلنا نلتزم؛ لأن هذه درجات بعضها فوق بعض بعد ما عظمت الأمر والنهي في قلبي فسلمت ورضيت وتيقنت.. وهذا هو المسلم القوي.

---

(١) متفق عليه، البخاري: ٩٣٨/٢، برقم (٢٥٠٩)، ومسلم: ١٩٦٢/٤؛ برقم (٢٥٣٣).

إذن الأحداث التي من حولنا لا تؤثر فينا بالريب والشك والتردد، فهذا أمر الله الذي يجعلنا نعود إليه، لا نفر منه بل نفر إليه.. نبدأ ولا ننتهي.. نقوم بأوامر الله ولا تسقط منا وهو التمسك بالعروة الوثقىٰ: التي لا انفصام لها، يعني هذا الكلام السابق.

«**واعتصام خاصة الخاصة بالاتصال**»: أي الاتصال برب العباد «**وهو شهود الحق تفريدًا**»: ترىٰ الحق في كل شيء، لا يغيب عنك الله.. أقول لك: اذكر الله، تقول لي: متىٰ نسيته حتىٰ أذكره؟!.. أنت في الحضرة القدسية.. أصبح الذكر تَعَبُّدًا وليس تَذَكُّرًا، فليس هناك محاولة أن تدخل نفسك في الحضرة لأنك في الحضرة فعلًا.. بعد الاستحذاء له تعظيمًا: الاستحذاء يعني التقرب ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق، من آية: ١٩].

«**والاشتغال بالحق تعالىٰ قربًا: وهو الاعتصام بالله**»: إذن الاعتصام علىٰ أمرين: الاعتصام بحبل الله ومُلَخصة الطاعة، والاعتصام بالله ومُلَخصة المعرفة والقرب.

بَـابُ
الْفِـرَار

الفـــرار

هو الهروب مما لم يكن إلى ما لم يزل

(١) فـــرار العامـــة:

مـن الجهـل إلى العلـم عقـداً وسـعياً، ومـن الكسـل إلى التـشمير جـداً وعزماً، ومن الضيق إلى السعة ثقة ورجاءً.

(٢) فـــرار الخاصـــة:

من الخبر إلى الشهود، ومن الرسوم إلى الأصول، ومـن الحظوظ إلى التجريد.

(٣) فـرار خاصـة الخاصـة:

مما دون الحق إلى الحق، ثم من شهود الفـرار إلى الحق، ثم الفـرار من الفرار إلى الحق.

بين يدي الفرار

الخطوة الثامنة من مائة خطوة للوصول إلىٰ الله ﷻ، ذلك أنه نَبَهَ أولا علىٰ باب اليقظة؛ لأنك إذا لم تستيقظ وتعلم حقيقة الحياة فلا فائدة لأنه لا حياة لمن تُنادي، فلابد من اليقظة، واليقظة أن تعرف أن هذه الدنيا إلىٰ فناء، وهي حقيقة لا يختلف فيها اثنان.. نرىٰ الموت أمامنا كل يوم في كل الأعمار.. في كل زمان ومكان وبكل الوسائل والطرق.. فمنا من يكرمه الله ﷻ بالشهادة، ومنا من يموت حتف أنفه، وكلهم بأجله لا يتقدم ولا يتأخر ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد، من الآية: ٣٨]، وهذه حقيقة ينساها الناس بالرغم من وضوحها وحضورها.. لابد أن يتيقظ الإنسان ويعلم أنه لا حول ولا قوة إلا بالله، وأنه لا حول له ولا قوة، وأنه لا يكون في كَون الله إلا ما أراد، فعليه بالتسليم والرضا، وعليه بالتوكل حق التوكل بأن يعمل بما أمره الله وألاّ يقف عند الرسوم، هذه اليقظة.. وما دام الإنسان قد تيقظ فإنه لابد عليه من التوبة حيث يرىٰ نفسه في عصيان ومخالفة، ويقول سيد المرسلين -حتىٰ يكون أسوة حسنة للعالمين كما أنه رحمة لهم- ﷺ: «**إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَىٰ قَلْبِي. وَإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ، مِائَةَ مَرَّةٍ**»[1]، وهو قد غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وحاشاه أن يصدر عنه ذنب؛ فإنما حسنات الأبرار سيئات المُقَرَّبين وهو سيد المقربين.

يا سائلي عن رسول الله كيف سها ❊ والسهو من كل قلب غافل لاه
قد غاب عن كل شيء سره فسها ❊ عما سوىٰ الله فالتعظيم لله

(١) سبق تخريجه، ص: ٦٧.

فغاب عن هذا الكون لأن قلبه قد تعلق بربه أبدًا، وغيابه عن الكون استوجب الاستغفار؛ لأنه مُكَلَّف بالتبليغ وبفتح الباب الذي بينه وبين الخلق، فلما أغلقه من شدة أنوار تعلقه بالحق ﷻ استوجب ذلك منه أن يستغفر ربه حيث أمره بالدعوة إليه، فقال: «**إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَىٰ قَلْبِي**».

رأىٰ أبو الحسن الشاذلي في المنام سيدنا رسول الله ﷺ، فقال له: يا عَلِيّ غين أنوار لا غين أغيار.. فمن شدة الأنوار التي دخلت قلب المصطفىٰ ﷺ من باب الحق- أغلقت باب الخلق؛ فاستوجب عليه أن يقول: أستغفر الله أن أغلقتُ باب الخلق، فيفتحه مرة أخرىٰ، أما غين الأغيار فهو الذي يغلِق -والعياذ بالله- باب الحق فيشعر الإنسان بتعلقه بالدنيا وأنها في قلبه.. كل ذلك استلزم أن تكون الخطوة الثانية هي التوبة..

ثم بعد ذلك المحاسبة «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا»، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ [الحشر، من آية: ١٨]، ثم الإنابة وهي تطبيق التوبة؛ فالتوبة نظر والإنابة عمل، ثم التفكر والتفكر.. السعي إلىٰ المطلوب ومطلوبنا ومقصودنا هو الله، وفي طريقك إلىٰ الله تكثر اللوافت من الأنوار ومن الأسرار ومن اللذات ومن الشواغل ومن المشاغل ومن الدنيا ومن الآخرة، فينبغي عليك ألا تلتفت إلىٰ شيء من ذلك وإنما يكون مقصودك هو الله، فالله مقصود الكل، والملتفت لا يصل، فلا تلتفت عما يشغلك في يمينك ولا في يسارك، إنما وجِّه وجهك في طريقك إلىٰ الله، وخَلِّ قلبك من الدنيا بما فيها من أنوار وأسرار وملك وملكوت، فالمقصود هو الله وليس المقصود هو التلذذ، ثم تحدث عن التذكر وهو تطبيق للتفكر؛ لأنك إذا تذكرت فقد رفعت الحجاب الذي بينك وبين الله ﷻ وحينئذٍ تستحي منه، وحينئذ تتعلق به، وحينئذ فهو ﷻ حسيبك وكافيك،

ثم بعد ذلك الاعتصام ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾ [الحج، من آية: ٧٨]، ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران، من آية: ١٠٣]. أما الاعتصام بحبل الله فيكون في أول الطريق ثم يأتي الاعتصام بالله، وحبل الله فيكم هو القرآن، يعني كأنه وصل إلىٰ مُراد الله ﷻ من قرآنه وعرف أن الله هو الذي يشغل قلبه.. درجةٌ عالية، يتلوها بعد ذلك الفرار..

والفرار إلىٰ الله ﷻ.

بابُ الفرار

«قال تعالىٰ: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾» الفرار فيه انتقال وفيه سرعة.. الانتقال لابد أن يكون انتقال هرب من ناحية، وطلب من ناحية أخرىٰ..

إذن الفرار إلىٰ الله فيه ثلاثة عناصر: أول ذلك: الهرب، وفيها فزع وخوف وإباء لما هو فيه، ﴿فَفِرُّوٓاْ﴾ فيها هرب، والثاني: ﴿إِلَى﴾ فيها طلب وفيها سرعة.. والثالث: ﴿ٱللَّهِ﴾ فمن تعرفه هو الله، لو كان قال: انتقل إلىٰ الله.. امش إلىٰ الله.. اسع إلىٰ الله.. سِر إلىٰ الله.. كان فيها بطء.. علىٰ مهلك، يعني الذي لا تدركه اليوم تدركه غدا ولكن ﴿فَفِرُّوٓاْ﴾ فيها سرعة فالهرب يشتمل علىٰ سرعة، والطلب يشتمل علىٰ سرعة فأنت تهرب من الرَّدي إلىٰ الرَّضي.. إلىٰ الله ﷻ.

﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الذاريات: ٥٠].

«**الفرار: هو الهرب**»: عَبّر بالبداية (هرب) بدايتك هكذا «**مما لم يكن إلىٰ ما لم يزل**»: أي من الخلق إلىٰ الحق؛ حيث إن الخلق أوهام..؛ فالخلق حادث، فانٍ، محتاج في قيامه إلىٰ غيره، لا حول ولا قوة لك.. كل كيانك بإذن الله..؛ فنحن قائمون بالله ﷻ.

إذن أول الشهود: أن ترىٰ هذه الحقيقة، وهي أن أمري ليس بيدي بل كله بإذن الله؛ فلا أستطيع أن أجعل قلبي ينبض ولا أجهزتي تعمل، ولا أستطيع أن أحافظ علىٰ حياتي ولا علىٰ صحتي، ولا أعرف أموت- يُلقي بنفسه منتحرا من فوق لكي يغرق فينقذونه من تحت.. فإنه لم يأت أجله بعد.

إذن ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ٣٧ كُلُّ

ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا ﴾ [الإسراء: ٣٧-٣٨]، ﴿ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴾ [لقمان: ١٩]. فمن أنت؟ هل أنت كائن ثابت قائم هكذا بنفسك.. يقول أحدهم: أريد أن أتخذ القرار حالًا! أبيدك القرار..؟!

أمّا الذي تعلق قلبه بالله فيقول: يا رب، ويتخذ القرار أيضًا ولكن ليس بنفسه وإنما بالله..؛ متذكر.. مرفوع عنه الحجاب..؛ فليس غافلًا ولا محجوبًا.

الهرب مما لم يكن إلى ما لم يزل.. قال: «**ما لم يكن**».. وهذه الحقيقة إذا عرفتها عرفت مم فررت! من لا شيء، من وهم، إلىٰ من؟ إلىٰ ما لم يزل، الله..

وما دامت القلوب معلقة بالدنيا فنعطي مثلًا من الدنيا ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ ﴾ [النحل، من آية: ٦٠].. ماذا يفعل العاقل إذا قيل له: خذ هذه قطعة من الطين الفخار، أو خذ هذا الكنز من الذهب؟

ستقول: كنز الذهب. إذن خذ كنز الذهب وألق بهذه القطعة من طين الفخار المكسورة التي لا قيمة لها، ووجودها -إن كانت توصف بالوجود- يضر ولا يسرّ.

إذا فعلت هذا ماذا حدث في نفسك من الداخل؟ ﴿ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [المائدة، من آية: ١٠٠]!

العاقل إذن يعيد حساباته، فما هذه الخيبة مع الله!!! ليست الخيبة ألا تعرف كيف تحسبها في الدنيا.. ولكن الخيبة الحقيقية ألا تعرف كيف تحسبها مع الله.

هو الهرب مما لم يكن إلىٰ ما لم يزل.. هذا هو الفرار من الخلق إلىٰ الحق.. من الفاني إلىٰ الباقي.. من الدنيا إلىٰ الآخرة.. من الضيق إلىٰ السعة.. من الظلمات إلىٰ النور.. ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [الأنعام، من آية: ١٥١]، ﴿ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [آل عمران، من آية: ١١٨].. إنْ!

عندما تشاهد الحقائق تسأل نفسك: لماذا أتمسك بهذه الدنيا رغم علمي بحقيقتها؟! تَعَوُّد.. كيف نلغي هذا التعوُّد؟ بالتعود أيضًا.. عَوِّد نفسك علىٰ تركها كما

عودت نفسك على التمسك بها، وتركها لا يعني أن نخرب الدنيا والأعمال، لا.. فالزهد لا يكون إلا فيما في يدك وليس فيما هو موهومك؛ يعني الفقير لا يكون زاهدًا، الزاهد تكون الدنيا في يده وليست في قلبه، ولا يحزن على مفقود ولا يفرح بالموجود هذا هو الزاهد، إنما الفقير اسمه الصابر ليس معه شيء فهو صابر على البلاء الذي هو فيه، وإنما الزاهد شيء آخر، معه ولكنه يتعالى على ما معه لله.

«**وهو على ثلاث درجات: أولا فرار العامة:**

١- من الجهل إلى العلم»: يتعلم.. لأن أول السعي الوعي، فلابد أن تحدد طريقك؛ لأن الإنسان في مفترق الطريق بين الخير والشر ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] -«**عقدًا**»- يعني عقيدة، فتكون عقيدتك مثل عقيدة أهل العلم. أما الجهالة فأن تنام.

«**وسعيًا**» يعني العمل، فيكون عملك مثل عمل أهل العلم إذن الوعي والسعي في العلم.

٢- «**ومن الكسل إلى التشمير**»: فالتشمير كناية عن الاستعداد وإزالة العوائق عن العمل والسير، النبي عليه الصلاة والسلام كان يستعيذ بالله ويقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ وَالحَزَنِ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ**»[1].

ويقول الشاعر:

ولم أر في عيوب الناس عيبًا ❁ كعجز القادرين على الكمال

هذا هو عجز القادرين على الكمال، فليس عندهم هِمّة، من نعم الله عليك أن خلقك مسلمًا وهذه نعمة ما بعدها نعمة، لأنه لو خلقت على غير الإسلام، بوذيًا أو ملحدًا لكانت مصيبة.. فإذ به هداك إلى الإسلام -الحمد لله- هداك

(١) سبق تخريجه، ص: ٤٣.

ولم يهد غيرك كثيرًا ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام، من آيـة: ١١٦].. ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].. ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]، فالكثرة هذه لا معنى لها.. وقد هداك الله للإسلام إما بالميراث وإما بالدخول فيه، مِنّة ونعمة فلماذا لا تعمل، ما العائق؟!

خلقك مسلمًا، ومعك القرآن، ومكّنك من الفهم عن الله ورسوله فما العائق أمامك؟! ما خطبك؟!

استعذ بالله من العجز والكسل.

«جِدًّا وعزمًا» أي همة عالية، ونية صادقة «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**»[1] ويكون هناك جد، والجِد عبارة عن مراعاة الأوقات، سيدنا عمر يقول: لم يدخل نَفَسٌ وكنت آمل أن يخرج، ولم يخرج نَفَس وكنت آمل أن يدخل مرة ثانية.. مراعاة الأوقات معناها أن أحاسب نفسي مع ربي باللحظات وليس بالسنين..! كل لحظة: الآن والآن.. والآن مثل الجندي المستعد دائمًا، كأنها قضية يدافع عنها وهو كذلك..؛ «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً**»[2] فالمؤمن مستعد دائمًا، ومتيقظ دائمًا، وفي حالة جهاد دائمًا.. جزء منه القتال.. والقتال يكون شهرًا أو شهرين وجهاد النفس مستمر.. ولو وصلنا به إلى المرحلة العليا فنكون فعلًا كما قال ﷺ: «**قَدِمْتُمْ خَيْرَ مَقْدَمٍ، وَقَدِمْتُمْ مِنَ الْجِهَادِ الأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الأَكْبَرِ، مُجَاهَدَةُ الْعَبْدِ هَوَاه**»[3]، لأن الجهاد الأصغر يشتمل على بذل النفس لله، لكن الأصغر في الوقت وليس في الغاية ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ

---

(١) سبق تخريجه، ص: ٩١.

(٢) أخرجه البخاري: ١٢٧٥/٣، برقم (٣٢٧٤).

(٣) أخرجه: البيهقي في الزهد: ١٦٥/٢، برقم (٣٧٣)، وقال: هذا فيه ضعف. والخطيب: ٥٢٣/١٣.

يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة، آية: ١٩٠] نُبل، جهاد، لما عاد منتصرًا من الحرب لم تأخذه نفسه إلىٰ الإفساد في الأرض وإراقة دماء إخوانه المسلمين لأنه صار قتَّالا، لا. بل إنه رجع وضبط نفسه، رجع إلىٰ الجهاد الأكبر.

إذن الأكبر والأصغر ليس في القيمة -لأن الجهاد في سبيل الله أعلىٰ شيء- إنما هذا في المدة، فهو قصير في المدة أو في الحالة؛ لأن السِلم في حياة البشر أكثر من الحرب، فالحرب تستمر إلا أنها حالة طارئة تنتهي.. ولو بعد عشر سنين، الناس تريد أن تعيش في سلام، إذن الجهاد الأكبر جهاد النَّفْس.. وجهاد النَّفَس: يعني الأنفاس- لحظات- بمراعاة الأوقات.. احذر أن يغيب عنك الوقت وإلا ستجد نفسك كبرت في السن وما عملت شيئًا.. هناك صراع مع الوقت، فالوقت الذي يذهب لا يأتي مرة ثانية، فلابد أن يجدك الله حيثما أمرك، وهذا هو الجِد.

المحافظة علىٰ الأوقات، وإتقان العمل هي عناصر الجِد، فلابد أن تُتقِن عملك خصوصًا ما كان تعبُدا لله، ولذلك لما تتصدق تصدق من أحسن مالك ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ [البقرة، من آية: ١٧٧] بل مما تحب؛ لأن هذه الصدقة تقع في يد الله قبل أن تقع في يد الفقير، فاستحِ من الله، أنت تعطيها لله، وهل ترىٰ الفقير؟! ألم نقل: لم يكن؟! إذن أنت لا ترىٰ الفقير، أنت ترىٰ من لم يزل، ترىٰ الله الذي إليه فررت.

٣- **ومن الضيق إلى السَعة ثقةً ورجاءً**: إذن هناك ما تعلق بالفكر والعقيدة «من الجهل إلىٰ العلم»، وهناك ما تعلق بالعمل «من الكسل إلىٰ التشمير»، وهنا يتحدث عن ما يتعلق بالقلب «الأخلاق». إذن فهناك عقل، وهناك سلوك تعلَّق بالأركان والجوارح، وهناك قلب وهو الأهم، ودائمًا أهل الله يضعون القلب فوق؛ حيث يضبط العقل، والعقل يضبط السلوك، ولا تعكس وإلا كنت علمانيًا، سلوكك يحكم عقلك وعقلك يحكم قلبك! ولكن القلب هو الذي يُحكم العقل عند الناس الذين عندهم صحة نفسية وليس عندهم مرض نفسي.

ففرار الخاصة من الخبر إلىٰ الشهود والخبر هو القرآن والسُّنَّة، يسمع الأمر بالصلاة فيصلي، فإذا سمعت ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ ﴾ [الإسراء، من آية: ٧٨]، تتلقىٰ الخبر ثم تُصَدِّقُ ثم تُنَفِّذُ..

هذه درجة أنك تسمع الخبر وتعمل به، فأصبحت مسلمًا، هذه درجة؛ فكل هذا محصور في (الخبر)، ولكن توجد درجة أعلىٰ من هذه وهي (الفهم) أن تفهم ما معنىٰ صلاة، صلاة يعني: صِلة بينك وبين ربك، صلاة يعني: محل للخشوع، صلاة يعني: دعاء ورباط.

وهناك درجة أعلىٰ من ذلك (المعيشة) أنك تعيش الصلاة؛ إذن هناك تَلَقٍّ وهناك فهم وهناك معيشة، وهكذا في كل شيء، في الزكاة.. التلقي أنك تذهب وتدفع الزكاة.. الفهم أنك تفهم أن هذه طهارة لك وحماية وبركة وتعاون علىٰ البر والتقوىٰ وأداء حق الله.. لكن الأول غير فاهم..؛ فالعبادة عنده أصبحت عادة وتأدية فرض وانتهىٰ الأمر (مجرد خبر)، الثاني: فكَّر وفهم، الثالث: عاش يعني شاهد الله وراء الزكاة.. شاهد الله وراء غناه وشاهد الله وراء الفقير وشاهد الله وراء الحياة..

كيف جاءتني هذه الأموال؟ أنا من أسرة غنية، أو لأني نجحت في التجارة، أو لأنني جاءت لي عن طريق الهبات، فأصبحت غنيًا. من الله.

ثم كيف تَعَرَّض لي هذا الفقير؟ مِن الله؛ فالله هو الرزاق؛ أراد أن يرزق هذا الفقير فأعطاني مالًا وجعل قلبي يَرِق وأفهم الزكاة وأوافق علىٰ إخراجها، فيعطيني أنا ثوابًا ويفك أزمته هو! هذا هو الشهود..

«**ثانيا: وفرار الخاصة:**

١- من الخبر إلىٰ الشهود»: أن تنتقل من الخبر إلىٰ الشهود.. والخبر هو التلقي عن الكتاب والسنة، وهذا حسن؛ ولكنه درجة وراءها درجات أعمق منها كلما فهمنا عن ربنا.

٢- **ومن الرسوم إلى الأصول: الرسوم** هي: الصلاة والزكاة والصوم والجهاد والبيع والشراء، الفكر، والأخبار والأحوال، والأشخاص، والأعمال، كل هذه رسوم.

الأصول: الله. لابد أن نفهم أن الله وراء كل هذا ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران، من آية: ٢٦] بيده الملك، وبيده الخير، ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج، آية: ١٦]، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء، آية: ٢٣].

٣- «**ومن الحظوظ إلى التجريد**»: يصلي وهو يرىٰ نفسه أنه صلىٰ، هناك درجة أعلىٰ من هذا وهي أن تعلم أن الله هو الذي وفقك أن تصلي فتقول: الحمد لله أنك وفقتني أن أصلي، ثم يصل بك الحال إلىٰ أنه هو الذي يُجري فعل الصلاة عليك، يعني أنت لم تفعل شيئًا، فيزداد بك الخضوع إلىٰ الله، فتقول: كيف أحمدك يا رب؟! أنت كما أثنيت علىٰ نفسك لا نحصي ثناءً عليك، يعني أنت عاجز أن تحمده ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل، من آية: ١٨] فتشعر بعجزك أمامه فتقول: الحمد لله كما ينبغي لجلالك. أتت من القلب عن شهود وتجريد، كما ينبغي لجلالك، يعني معناها: إني عاجز عن الكلام، ماذا أقول؟! لأنني لو قلت: الحمد لله. فهذا شكر، والشكر طاعة، والطاعة نعمة، والنعمة تستوجب الحمد؛ فالحمد يستوجب الحمد، عندما أقول: الحمد لله أريد أن أقول الحمد لله؛ لأنك وفقتني علىٰ كلمة الحمد لله. والحمد الثاني والحمد الثالث... لن ننتهي... فتختصر الكلام إذن وتُظهر العجز وتقول له كما قال نبي الله ﷺ: «**لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ. أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ**»[1]؛ ولذلك قالوا: حمد القديم للقديم (حمد الله لنفسه).. نحن نلجأ إلىٰ حمد الله لنفسه.. «أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ» يعني لن يوفيك إلا حمدك لنفسك، ولا نستطيع أن نكافئ نعمتك فنقول: لك الحمد حمدًا يوافي نعمتك ويكافئ

---

(١) أخرجه مسلم: ١/٣٥٢، برقم (٤٨٦) كتاب الصلاة، ما يقال عند الركوع.

مزيدك، مزيده هو حمد الحمد، حمد حمد الحمد..! قم به أنت يا رب لأني قد عجزت، عجزت ماذا تعني؟ يعني: لا حول ولا قوة إلا بالله.. أني عجزت.. عجزت يعني وضعت الحول والقوة عند ربي واعترفت بعجزي قباله ﷻ.

«ثالثا: وفرار خاصة الخاصة:

١- **مما دون الحق إلى الحق**»: أول شيء يفرون مما دون الحق إليه؛ فيفر من الخلق، ويفر من عبادته ويفر من حولهِ وقوته ويفر من كل شيء إلىٰ الله، لا يسمع أحدًا من الناس ولا يعيش ولا يتحرك في الكون إلا لله.

٢- «**ثم من شهود الفرار إلىٰ الحق**»: وهي درجة صعبة، ففي البداية كان هناك خلق وحق، والآن لا يلتفت إلىٰ الخلق -وهم ما دون الحق، بما فيهم الأعمال والأحوال والأشخاص والزمان والمكان وكل شيء- فلا يرىٰ أحدًا إلا الله، حتىٰ نفسه، لا يرىٰ نفسه أنه هو الذي ينتقل بنفسه، ويفر بنفسه، إذن هناك ثلاثة: خلق، وأنت، وربنا.. فتنتقل أنت من الخلق إلىٰ الله.

فأول شيء: لا يرىٰ الخلق، ذهبوا، ولكن لم يزل يرىٰ نفسه مع الله.

وثاني شيء: ألا يرىٰ نفسه، يسمون هذه الحالة: السُّكر.. سكر بالخمرة الأزلية في حب الله.. يعني لا يرىٰ إلا الله فقط..

فثالثًا: فالفرار نفسه هو لا يراه؛ فإذا سقط شهوده للفرار فقد سقط شعوره بنفسه.

٣- «**ثم الفرار من الفرار إلىٰ الحق**»: لا خلق ولا أنت؛ لكن الطريق أمامه إلىٰ الله. إذن مازال هناك فرار، فهذا يذهب أيضًا، فلا يبقىٰ في عقله ووجدانه إلا أنه ينظر إلىٰ الله «**أنْ تَعْبُدَ اللهَ كأَنَّكَ تَراهُ، فإنْ لم تَكُنْ تَراهُ فإنَّهُ يراك**»[١].

---

(١) سبق تخريجه، ص: ٣٠.

بَابُ

الرِّيَاضَةِ

الرياضة

تمرين النفس على قبول الصدق

(١) رياضة عامة:

وهي:

١- تهذيب الأخلاق بالعلم.
٢- وتصفية الأعمال بالإخلاص.
٣- وتوفير الحقوق في المعاملة.

(٢) رياضة الخاصة:

وهي:

١- حسم التفرق.
٢- وقطع الالتفات إلى المقام الذي جاوزه.
٣- وإبقاء العلم يجري مجراه.

(٣) رياضة خاصة الخاصة:

وهي:

١- تجريد الشهود والصعود إلى الجمع.
٢- ورفع المعارضات.
٣- وقطع المفاوضات.

بين يدي الرِّيَاضَة

الرياضة هي الخطوة التاسعة من العشر الأُوَل في الأبواب العشرة من قسم البدايات، ففي قسم البدايات خطوات عشر يبدأ فيها السائر في طريق الله ﷻ من نقطة البداية إلىٰ ما فوقها، سواء كان من العوام أو الخواص أو خواص الخواص، كلٌ حسب حاله؛ فيبدأ أولا باليقظة، فالعامّي -كشأننا- يتيقظ بأن يعلم حقيقة الدنيا، وأنها إلىٰ زوال، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، وأنه لا يكون في كونه إلا ما أراد، وأنه ينبغي علينا أن نلتفت إلىٰ أنفسنا بإقامة الشرع عليها.

ثم بعد ذلك إذا ما تيقظت وعرفت حقيقة الدنيا وأنها ليست هي المقصود الأهم- استطعت أن تُعلِنَ التوبة، فتتوب مما أنت فيه. وعندما تتوب مما أنت فيه وتنخلع، بالعودة إلىٰ الله ﷻ وبالندم علىٰ ما صدر منك من معاصيَ، وبالتوجه إليه ﷻ بالعزم علىٰ ألا تعود لمثلها أبدًا- فإنك تحاسب نفسك وتنظر أي مصيبة أنت فيها، وتَعُدّ علىٰ نفسك المصائب فتخضع لله وتُخبِت له وترجو ثوابه وتخشىٰ عقابه.

فلابد عليك حينئذ أن تطبق هذه التوبة التي تُبتَ بها إلىٰ ربك، بأن تقصده وحده لا شريك له، وتطلب رضاه، وتنتقل إلىٰ العمل، وترجع إلىٰ الحق منيبًا، ثم بعد ذلك تتفكر وتلتمس ببصيرتك -لا ببصرك- حقائق الدين، ثم بعد ذلك تطبق ذلك بالتذكر برفع الحجاب، ثم بعد ذلك تعتصم، والاعتصام علىٰ نوعين: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران، من آية: ١٠٣]، ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ ﴾ [الحج، من آية: ٧٨].

ثم بعد ذلك تفر إلىٰ الله، والفرار فيه انتقال وفيه سرعة وفيه حركة وفيه توجه «إلىٰ» وليس «من»، فإن مَنْ فَرَّ مِنَ الله -والعياذ بالله تعالىٰ- يستدبره ولا يراه، والنبي ﷺ في مرتبة الإحسان يقول: «**أَنْ تَعْبُدَ الله كأَنَّكَ تَراهُ، فإنْ لم تَكُنْ تَراهُ فإنَّهُ يراك**»(١).

ثم وصل بعد ذلك التفصيل إلىٰ باب الرياضة.

(١) سبق تخريجه ص: ٣٠.

باب الرِّياضة

«**قال الله تعالىٰ:** ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون، من آية: ٦٠]» وجلة يعني ترتعش، أي فيها حركة.

الرياضة: «**تمرين النفس على قبول الصدق**»: في الاعتقاد وفي الفكر وفي العمل.

والتمرين: معناه طلب للمِران ومقاومة ومجاهدة وتَكَلُّف، مشقة، فلا تترك نفسك هكذا، فنحن بعدما تيقظنا، وتُبنا، وحاسبنا، وتفكرنا، وتذكرنا... وكذا إلىٰ آخره بدأنا هنا وكأن هذه الرياضة هي أول التربية.

والطريق -كما قلنا قبل ذلك- هو ذكر وتربية وخلوة.

فالذكر: له نظام ترقىٰ به النفس ويحاول المُكَلّف أن يترقىٰ في الذكر، وأن يستعين به علىٰ شهوات نفسه وضلالاتها، وعلىٰ شهوات فِكره وضلالاتها، وعلىٰ ما يحيط به من فتن ومحن وإحن.

والتربية: أولها أن تتعلم الصدق، بتمرُّن، بتكلف، يعني: تقاوم نفسك ولا تترك نفسك هكذا سبهللًا[1].

تمرين النفس فيه مقاومة وتعتبر بداية التربية الحقيقية، أي شيء ترىٰ أن نفسك تريدها تخالفها فيه، ويُذكر في الآثار أنهم ذكروا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه أحد

---

(١) جاء سَبَهْلَلًا أي: بلا شيء، علىٰ باطل، وعلىٰ ضلال. وفي الحديث: لا يَجِيئَنَّ أَحدكم يوم القيامة سَبَهْلَلاً؛ وفُسِّر: فارغًا ليس معه من عمل الآخرة شيء. وروي عن عمر أنه قال: إني لأكره أن أرىٰ أَحَدَكم سَبَهْلَلًا؛ لا في عَمَل دُنيا ولا في عَمَل آخرة. انظر: لسان العرب: ١١/٣٢٤.

اليهود في المدينة -قبل أن يُجليهم عن الجزيرة- يُخبر من وراء الكثيف وكأنه لطيف، يعني: يعرف ما وراء الحائط، فأخذ سيدنا عمر ﵁ السيف وذهب إليه فلما ذهب وطرق الباب، قال اليهودي: علام جئت تقتلني يا عمر؟ من وراء الباب عرف أنه عمر، وعرف أيضًا أنه جاء يقتله! قال له: افتح ولك الأمان. فلما فتح قال له: كيف وصلت إلىٰ هذا؟! قال: ما عُرِض عليّ شيء قط إلا عرضته علىٰ نفسي فإن اشتهته أبيته، وإن أبته فعلته، قال له: هذا الذي وصلت إليه من مقاومة نفسك - لما قاوم نفسه منحه الله خوارق العادات وليس الكرامات.

هناك فرق بين الكرامات وخوارق العادات؛ فالكرامات لا تطلق إلا علىٰ الأولياء والمؤمنين - خوارق العادات قد تكون لغير المسلمين فهي ليست دليلًا علي شيء؛ وإنما نعمة من نعم الله مثل الغنىٰ، والبصر... إلخ،

في الأديرة أناس يطيرون في الهواء، وفي «التبت» ينظر إليك يقول لك فيما تفكر أو أين كنت بالأمس! هذه نعمة لكنه كَفَرها أو حَصّلَها كنعم الله كلها، لكنه لم يقم بشكرها، لأن أول الشكر الإيمان فقد يطير في الهواء ويمشي علىٰ الماء، لكنه قد يكون كافرًا أو عاصيًا، **لئلا تخدع بمثل هذه الأمور الخوارق**؛ فليس هذا دليلًا علىٰ الولاية، ولا هو لب الدين، ولا هو أصل طريق الله، وإنما طريق الله: الذكر والتربية والخلوة، في أثناء هذا يمكن أن تطير في الهواء، لا مانع فنحن نطير بالطيارة، ماذا حدث؟! ويمكن أن تمشي علىٰ الماء برجليك، وماذا يعني هذا؟ لا شيء، فأنت تمشي بالسفينة، فلا داعي لهذا الخبَل الذي يحدث في الدماغ!

سيدنا المرسي أبو العباس سمع ضجة فقال: ما هذا؟ قالوا: ضبطنا أحد العُبّاد يفعل الفاحشة، ومع امرأة متزوجة، فلما أردنا أن نمسك به، جرىٰ فأخرج منديلًا من جيبه وفرشه علىٰ الماء ومشي عليه بعيدًا، قال: هذا رجل فاسق، قالوا: أفْهِمْنَا ما هذا؟! قال: إن الكريم إذا وهب ما سلب، ربنا عَرّفه كيف يمشي علىٰ الماء

فلا يسلبها منه لأنه عصىٰ وزنا وأصبح فاسقًا،؛ إذن فالفاسق يصدر منه الخارقة، والكافر يصدُر منه الخارقة أشد من الفاسق فهذه الخوارق لا تساوي عند الله شيئًا.

طريق الله ليس هذا، وإنما طريق الله: الذكر والتربية والخلوة، ولذلك قال أهل الله: لو رأيت الرجل يطير في الهواء أو يمشي علىٰ الماء فاعرِض أمره علىٰ الشرع فإن وافقه فهو علي جادة الطريق، ولكن ليس لأنه طار أو مشي ولكن لأنه وافق الشرع، وإن خالفه فهو شيطان، شيطان طيّره معه في الهواء، فيجب عليك أن تؤمن بالغيب في الشهود.

فسيدنا عمر قال له: أسلم فأنت رجل صالح، لو أسلمت ستكون في مرتبة عالية، ولذلك فإن ربنا -وهو يتكلم عن هؤلاء في القرآن- يقول: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [آل عمران، من آية: ٧٥] وهذا إنصاف، ولم يقل «كلهم» بل قال: «ومنهم» وهذا منهم، هذا يدل علىٰ أن القرآن من عند الله؛ لأنه مُنصف إنصافًا لا يرد علىٰ خاطر البشر.

فقال له اليهودي: أعطني ثلاثة أيام أفكر، ثلاثة أيام ثم جاء وقال له: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، قال له: ماذا حدث؟! قال له: عرضت الإسلام علىٰ نفسي فأبت إباءً شديدًا فأسلمت!

إذن؛ صدق التربية نَجّاه وهذه هي الرياضة، هذا هو الصدق مع النفس، وكان سبب إسلامه أنه عرف المفتاح ، فلما جاءت في هذه القضية كان منصفًا فقد سأل نفسه: لماذا أنت ضد الإسلام؟ العنجهية[1]، العرقية، الحقد والحسد، كُشِفَ أمام نفسه، فقال: أنا أهرب من كل هذا وإذ بي ملآن في قلبي منه- من الحقد

---

(١) العنجهية: الكِبْرُ والعَظَمةُ، ويقال: الجهلُ والحُمْقُ. انظر: لسان العرب: ١٣/٥١٣.

ومن الحسد ومن التفاخر والتعالي... إلخ- إذن أنا رجل شرير تُبنا إلىٰ الله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. فأسلم فنجا.

«وهي على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى رياضة العامة وهي:

١- تهذيب الأخلاق بالعلم»: لابد أن تتعلم، فمن غير علم لا تساوي شيئًا، ولذلك قالوا: شرف العلم فوق كل شرف، ومن ذاق عرف، ومن عرف اغترف، لأنه حلو؛ هل من مزيد؟

٢- «وتصفية الأعمال بالإخلاص»: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»[1]، فلابد أن العمل يكون خالصًا لله لا يشرك فيه شيء غيره. لا دنيا نصيبها ولا امرأة ننكحها. ولا شيء.

٣- «وتوفير الحقوق في المعاملة»: الديانة الإسلامية شأنها عجيب وعزيز جدًّا. أحدهم قال لي: دينكم هذا كله واجبات؛ الصلاة واجبة، الزكاة واجبة، الحج واجب.. إلخ! ونسيتم الحقوق؛ أما نحن فعندنا حقوق الإنسان، وحقوق المرأة، وحقوق البيئة، وحقوق الطفولة، وحقوق العمال في النقابات، إلخ، فحضارتنا أرقىٰ من حضارتكم.

قلنا له: أنت جاهل بحقيقة ديننا؛ فأنت تظن أنه ليس عندنا حقوق، إن الإسلام ارتقىٰ بالحقوق إلىٰ مصاف الواجبات، حقوق الإنسان ما اسمها عندكم؟ قال لي: حق الحياة، قلت له: هذا واجب عندنا، فهو قد ارتقىٰ ثم ارتقىٰ ثم ارتقىٰ إلىٰ أن وصل إلىٰ أنه واجب، ولو انتحرت مت كافرًا، حق الحياة ارتقىٰ عندنا إلىٰ مصاف الواجبات، حتىٰ أصبحت المحافظة علىٰ الحياة وعلىٰ النفس مقصِد شرعي من المقاصد الخمسة

---

(١) سبق تخريجه، ص: ٩١.

الشرعية التي هي :الحفاظ علىٰ النفس، الحفاظ علىٰ العقل، الحفاظ علىٰ الدين، الحفاظ علىٰ العِرض وكرامة الإنسان، الحفاظ علىٰ المِلك والمال.

ارتقت الحقوق إلىٰ الواجبات، واجب عليك أن تحافظ علىٰ عقلك، واجب عليك أن تحافظ علىٰ حقك، وليس نافلة،؛ لا أحد يمنحه لك ويدافع عنك أنت الذي تدافع عن نفسك ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾ [البقرة، من آية: ٢٥٨]، هو يظن أنها واجبات وتكاليف فقط، ولكن التكاليف اتضح أن أصلها حقوق ولكن ارتقت إلىٰ مصاف الواجبات في توازن لا يزِنُه إلا الله، فكلما خاطبونا لكي يردونا عن ديننا إن استطاعوا يتضح من ديننا جماله وبهاؤه وأننا علىٰ الحق، وأنهم يحتاجون إلينا علىٰ ضعفنا هذا الذي نحن فيه!

الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾: «أَخْلَصهُ وَأَصْوَبهُ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ خَالِصًا ولَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يُقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا لَمْ يُقْبَلْ حَتَّىٰ يَكُونَ خَالِصًا، وَالْخَالِصُ إِذَا كَانَ لِلهِ، وَالصَّوَابُ إِذَا كَانَ عَلَىٰ السُّنَّةِ»[1] يعني بالرياضة؛ فالإخلاص يأتي من كثرة الذكر، والصواب يأتي من العلم، أن تكون علىٰ قدم النبي المصطفىٰ والحبيب المجتبىٰ ﷺ.

«**والدرجة الثانية: رياضة الخاصة:**

١- حسم التفرُّق»: يعني تجمع قلبك علىٰ الله ولا تجعله يتفرق علىٰ أمور شتىٰ- هَم الرزق، وهَمّ الصحة، وهَمّ العيال، وهَم الجيران، وهَمّ أعدائك وخصومك... وهكذا- انس كل هذا وتعداه وعلق قلبك بالله. حسم: قطع التفرق، أي لا يوجد تفرق في القلب؛ يسمونها أهل الله: الجمعية علىٰ الله، ماذا تعني الجمعية علىٰ الله؟ يعني دائمًا يتفكر في الله تعالىٰ ويدوم علىٰ ذكره، وهذا يسير ولكن علىٰ من يسره الله

(١) انظر: حلية الأولياء، لأبي نُعيم.

عليه، «كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»(١).

اجعل عندك همة جمع القلب على الله، يعني: عدم الالتفات إلى السوى أي سوى الله، فليس لنا غيره، معتمدون عليه لا نتوكل إلا على الله، كيف أفعل؟ هكذا بلا تردد احسم أمرك. اجمع قلبك على الله، لا تلتفت إلى السوى، لا تخاف شيئًا من الكائنات؛ تخافك الأشياء،؛ فمن أولياء الله الصالحين من رَوَّضوا الأسود بنظرة، فليس في عينيه انشغال بغير الله، فيه ثقة وقوة وعِزّة بالله، فلما نظر للأسد خاف الأسد، فالأسد لما يأتي لولي من أولياء الله الصالحين وقد تعلَّق قلبه بالله ينصرف عنه، لو ملأ الله قلبك وصدقت في ذلك،. نظرك سيختلف وشكلك سيختلف،؛ ليست العبرة أن تكون أبيض اللون، مبتسم الوجه، ربما كنت أسمر اللون، ولكن ينضح وجهك بالنور، نور الإيمان،.

٢- «**وقطع الالتفات إلى المقام الذي جاوزه**»: يأتي أحدهم ويقول: رأيت رؤيا، أنا بالأمس طرت في الهواء، يقول أهل الله: كنا نستحي من الكرامة استحياء البكر من دم حيضها! وكانوا إذا كشف لأحدهم عن أحوال الناس دعا الله أن يستره ويقول: ما شأني أنا بالناس وعوراتهم؟ لماذا أشغل نفسي بهم؟ كمن فتح أمامه نافذة جيرانه، فإن كان تقيًا فإنه لا يتطلع على عوراتهم بل يغض بصره ويسارع بغلق النافذة، فإذا انكشف لي حالك وظهرت لي عورتك أأنظر إليها وأفرح أن ربنا كشف لي الناس؟! لا بل أدعو الله أن يستر، ما شأني كونك عملت ذنبًا أم لم تعمل؟! فيمكن أن تكون أفضل عند الله مني، فهذه فتنة، ولذلك قالوا: الكشف منه رحماني ومنه شيطاني، والكشف يُخطئ، حتى لا يغتر صاحب هذا ولا يلتفت، فيظل الإنسان في طريقه إلى الله لا يلتفت حتى للأشياء اللذيذة أو العجيبة أو التي فيها راحة، أسرار، أنوار،

(١) متفق عليه، البخاري: ٦/٢٧٤٤، برقم (٧١١٢)، ومسلم: ٤/٢٠٤١، برقم (٢٦٤٩).

للملك والملكوت، لا يلتفت، لماذا؟ لأننا لا نعبد الله لكي نرىٰ هذه الأشياء، ولكننا نعبده سبحانه لأنه يستحق العبادة، فملتفت لا يصل.

قطع الالتفات إلىٰ المقام الذي جاوزه: أهل الله يقولون: «ولي الله لا يسمع من خلفه» يعني وهو يسير في طريقه إلىٰ الله لا يلتفت وراءه، مقصوده أمامه، ويقولون أيضًا: «جئت والطريق أمامك» أي جئت للحد الذي وصلت والطريق أمامك، يعني ليس له نهاية، يقول الله تعالىٰ لنبيه ﷺ: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر، آية: ٩٩]، اليقين هو الموت، ولذلك «مع المحبرة إلىٰ المقبرة» كما قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وكما قيل: «ومن المهد إلىٰ اللحد»، يعني لا يجوز أن يأتي في وقت ما ويقول: أنا قد وصلت فلا صلاة ولا صوم ولا كذا. لا هذا هو الطريق أمامك وسيظل أمامك حتىٰ تلقاه ﷻ ولا تلتفت إلىٰ خلقه أبدًا.

٣- «**وإبقاء العلم يجري مجراه**»: علم الله يجري مجراه، يعني تسلم بالقضاء والقدر حتىٰ يكون قلبك مرآة -مجلىٰ- لصفات الله، الله يريد هذا فيكون قلبك موافق علىٰ كل شيء، فقلبك موافق علىٰ كل ما يكون في الكون؛ لأنه لا يكون في كونه إلا ما أراد، وهذه هي الطمأنينة؟ لكن انتبه؛ أنت مُكَلَّف بالعمل، فإذا وجدت حريقًا فيجب أن تقوم بإطفائه ولا تقول: ربنا أراد الحريق فتتركها! لا هو أراد الحريق من أجل أن تشارك في إطفائها، أراد أن واحدًا قدامك يقع في الماء وأرادك أن تنقذه، أراد أن الشمس إذا ارتفعت أن تصلي، فإذا لم تُصَلِّ، ولم تطفئ النار، ولم تنقذ الغريق- فأنت آثم؛ إذن هناك فرق بين التواكل وبين العبادة؛ فأنت بالنسبة لعلم الله تلزم به نفسك إيمانًا وعقيدةً ورضًا وتسليمًا، وفي العمل ملتزم بالشرع الشريف.

«الدرجة الثالثة رياضة خاصة الخاصة: «تجريد الشهود، والصعود إلىٰ الجمع، ورفع المعارضات، وقطع المفاوضات»: ويعجز اللسان عما هنالك.

بَــابُ
السَّمَاع

السَّمَاع

حقيقة الانتباه

وهو على ثلاث درجات:

(١) سماع العامة:

وهو على ثلاثة أشياء:

١- إجابة زجر الوعيد من الورع دَعًّا.
٢- وإجابة دعوة الوعد جهداً.
٣- وبلوغ مشاهدة المنّة استبصاراً.

(٢) سماع الخاصة:

وهو على ثلاثة أشياء:

١- شهود المقصود في كل رمز.
٢- الوقوف على الغاية في كل حس.
٣- الخلاص من التلذذ بالتفرق.

(٣) سماع خاصة الخاصة:

وهو على ثلاثة أشياء:

١- سماع يغسل العلل من الكشف.
٢- ويصل الأبد إلى الأزل.
٣- وَيَرُدّ النهايات إلى الأول.

بين يدي السَّماع

البدايات: أولها باب اليقظة بأن يعلم الإنسان حقيقة الدنيا، وأنها إلىٰ زوال، ويعلم الإنسان بأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، ويعلم الإنسان أنه لا يكون في كون الله إلا ما أراد، ويعلم الإنسان بأنه يبقىٰ وجه ربنا ﷻ ذو الجلال والإكرام بعد تحقق الفناء، فإذا تيقظ الإنسان وعرف هذه الحقائق فإنه يكون مُتهيئًا للدخول في التوبة بأن ينخلع عن المعصية، ثم ينخلع عن السوىٰ -يعني ما سوىٰ الله- وينظف قلبه حيث لا يرىٰ في الكون إلا الله، ثم بعد ذلك يحاسب نفسه فيشعر بمنة الله عليه، ويشعر بأنه مُقَصِّر فيدخل في باب الإنابة ويطبق مقتضىٰ التوبة؛ فالتوبة نظر والإنابة عمل، ويخلع نفسه من دائرة سخط الله ويدخل في دائرة رضوانه ﷻ، ويعمل بمقتضىٰ الوعد والوعيد ثم بمقتضىٰ الشهود، وكذلك يبدأ في التفكر في آلاء الله ولطائف صُنعِهِ ثم التذكر، فالتفكر نظر، والتذكر عمل، كالتوبة والإنابة،؛ فإنه يتفكر بمعنىٰ أنه يريد المطلوب، ويتذكر بمعنىٰ أنه يصل إليه، والتذكر رفع الحجاب، والحجاب إنما يحجبك أنت لا يحجب الله؛ لأن الله ليس بمحجوب،، أنت المحجوب عن الله بتلك الحُجُب التي تزول بالذكر وبالتدبر وبالتفكر وبالعبادة وبالاستمرار عليها، كل ذلك يوصلك إلىٰ رفع الحجب حتىٰ تصل إلىٰ التذكر.

قال أهل الله: بينك وبين الله سبعون ألف حجاب، والنفوس سبعة: النفس الأمارة، والنفس اللوَّامة، والنفس المُلْهَمة، والنفس الراضية، والنفس المَرْضية، والنفس المطمئنة، والنفس الكاملة، وفي كل مرحلة من هذه المراحل السبع تسقط الحجب إن أذن الله لك أن تنتقل من نفس إلىٰ نفس وترتقىٰ من درجة إلىٰ أعلىٰ، حتىٰ تسقط الحجب كلها فتعبد الله كأنك تراه كما أوصىٰ سيد الخلق في مرتبة

الإحسان بأن قال: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فإِنَّهُ يَرَاكَ»[1]، ودائمًا يرشدنا رسول الله ﷺ أننا إذا لم نُحَصِّل الشيء بقلوبنا فلنحصله أولا بظواهرنا فينعكس الظاهر على الباطن ويساعده إلىٰ أن يَمُن الله علينا به فنصل إليه فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، ابْكُوا، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوْا»[2]، وقال: «تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ»[3] فإذا لم تستطع أن تعفو بقلبك وأن تصفح عن أخيك فتبسم في وجهه؛ فبالتبسم تحصل علىٰ العفو في قلبك فترىٰ أن هذا أمر سهل بعد أن كان صعبًا.

فدائمًا رسول الله ﷺ يرشدنا أيضًا إلىٰ المحافظة علىٰ الظاهر، فالبطّالون الكذابون المنافقون الذين يقولون إنما الأمر أمر القلب،! هؤلاء بطّالون لأنهم لا يعلمون سُنَّة رسول الله ﷺ، فالتمسك بالظاهر واجب ولكن ليس هو المراد إنما المراد القلب، فإذا صليت فقد سقط عنك التكليف في الصلاة وسقطت عنك هذه الصلاة فلا نطالبك بها مرة ثانية، لكن ليس المقصِد الركوع والسجود، إنما المقصِد الخشوع والتذكر والتدبر في الصلاة، فماذا يكون إذا صليت بلا خشوع؟ فقدت مراد الله فيك، أنقول له: لا تُصَلِّ أم نقول له استمر في الصلاة حتىٰ تصل إلىٰ الخشوع فيها؟ بل يستمر في الصلاة إلىٰ الخشوع؛ لأنه مطالب بها سواء خشع أولم يخشع، أما الخشوع فشيء آخر، هو الحضور.

بعد ذلك تكلم لنا عن الاعتصام، والاعتصام إما أن يكون الاعتصام بظاهر الشرع وإما أن يكون الاعتصام بالله ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران، من آية: ١٠٣]، ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ ﴾ [الحج، من آية: ٧٨]، ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ

(١) متفق عليه، وقد سبق تخريجه، ص: ٣٠.

(٢) أخرجه أبو يعلى: ٧/١٦١، برقم (٤١٣٤)، قال الهيثمي: ١٠/٣٩١: أضعف من فيه يزيد الرقاشي، وقد وثق علىٰ ضعفه. وأخرجه أيضًا: نعيم بن حماد في زوائده علىٰ الزهد لابن المبارك: ١/٨٥، برقم (٢٩٥)، والعقيلي: ٣/٣٠٧.

(٣) أخرجه الترمذي، وقد سبق تخريجه، ص: ١٥٦.

ٱلنَّصِيرُ ﴾ [الحج، من آية: ٧٨]، الاعتصام بحبل الله يكون أولًا، ثم بعد ذلك يترقىٰ الإنسان فيعتصم بالله، ثم أمرنا أن نفر إليه ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ [الذاريات: ٥٠]، فالفرار إلىٰ الله المسارعة في الخير، ثم بعد ذلك تكلم عن الرياضة وأننا نحاول أن نُقَدِّم إليه ﷻ ما نُقَدِّم وقلوبنا وجلة وخائفة علىٰ حد الخوف منه؛ لأن الإنسان ينبغي أن يوازن بين الخوف وبين الرجاء.

ثم قال رحمه الله في الخطوة العاشرة والأخيرة من كتاب البدايات:

بابُ السَّمَاع

الإنسان إذا أكثر من الذكر بدأ في الدخول في السماع؛ فهي آخر خطوة في أول باب من أبواب المسير إلىٰ الله (البدايات).

والسماع ينبغي ألا يلفتنا عن مقصودنا فمقصودنا كلنا هو الله، الله مقصود الكل.

السماع نعمة، منحة، مِنّة من الله، والنِعَم ينبغي أن نقابلها بالشكر ولا نقابلها بالانشغال بها عن الله، نعمة الصحة ونعمة المال والجاه والسلطان والعلم والقوة، كل هذه نِعَم يرزق الله بها الكافر والمؤمن، فإذا ما رزق بها الله المؤمن فإنه ينبغي عليه ألا يشتغل بها عن الله؛ فإن الله هو المقصود، كذلك نعمة الالتزام فهي من عند الله، كذلك ما فُتِحَ علىٰ أهل الله في طريقهم إليه من الأسرار وتفجُّر الأنوار فإنه أيضًا ينبغي ألا يشغلك عن الله، وهو أمر دقيق يساعدك عليه المرشد إلى الله بأن يجعلك تتعدى هذا ولا تلتفت إليه ولا تقف عنده، إنما تستفيد منه.

فباب السماع هو أن ذاكر الله يبدأ يسمع إما بأذنه وإما بقلبه، وهذا ما يُسَمى عندهم بالواردات، ترد إليه.

إذن لابد علينا ألا نقف عندها وإلا فقد تركنا الأصل، وانشغلنا بالفرع فننشغل، وملتفت لا يصل إلى الله.

ثاني شيء بعد سماعي لابد أن أستفيد منه في طريقي إلى الله، حيث إن المؤمن كَيِّس فطن، ذكي يحتال ويأخذ ويقتحم، ولكن لله ﷻ وليس للدنيا،.؛ حتى يتقدم في طريق الله ﷻ.

وهذا هو الفرق بين الأدعياء وبين الأولياء.

نحن الآن ابتُلينا في طريق الله بطائفتين: الأعداء والأدعياء،

الأعداء يُنكرون الطريق إلى الله، ويقولون أنهم لم يروا شيئًا، وتقرر عند العقلاء أن فَقدَ الوجدان لا يلزم منه فقد الوجود؛ أنت لم تذهب إلى مكة فهذا ليس دليلًا على عدم وجودها، **هذا لا يقول به العقلاء**.

وفي الوقت نفسه فإن من جاء وسلك الطريق ثم تشعبت به الطرق وذهب يمينًا ويسارًا وانشغل باللافتات عن الله، فهذه مصيبة أيضًا، وهو لن يصل كذلك.

فمُنكِر الطريق الذي لا يريد السير لا يصل، والذي سار فَضَلَّ وذهب لا يصل، فكلاهما اشترك في عدم الوصول، فتنبه، فنحن بين الأعداء والأدعياء، ينبغي علينا أن نُحَرِّر أنفسنا من هؤلاء ومن هؤلاء، نحن نريد الله ونريد تنفيذ أوامره لأنفسنا.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال، من آية: ٢٣]، فطريقنا هذا مُقَيَّد بالكتاب والسُنّة، لا حركة ولا سكنة ولا كلمة ولا ذهاب ولا مجيء إلا وله دليل، ولكن أنت الذي لا تريد أن تفهم. كان الشيخ صالح الجعفري رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: أغلقوا على أنفسهم! أغلق على نفسه الباب ويقول: ماذا بالخارج؟! فماذا نفعل مع هؤلاء.

وهل يجوز الاستدلال في القرآن مطلقًا عن السياق؟ قالوا: نعم، الشافعي فعل ذلك وأبو حنيفة ومالك والإمام أبو الحسن الأشعري والإمام الباقِلاني. على مر العصور من لدن الصحابة وإلى يومنا هذا وأهل السنة والجماعة يستدلون بالقرآن مطلقا عن السياق، حتى سيدنا رسول الله ﷺ؛ فمن أين أخذوها!!

وكلهم من رسول الله ملتمسٌ * غرفًا من البحر أو رشفا من الدِّيَمِ
وواقفون لديه عند حَدِّهم * من نقطة العلم أو من شكلة الحكم
فهو الذي تَمَّ معناه وصورته * ثم اصطفاه حبيبا بارئ النَّسَمِ

مُنـزَّه عـن شريـكٍ فـي محاسنـه ❋ فجـوهر الحُسن فيـه غيـر مُنفصمِ
فـاقَ النبييـنَ فـي خلـقٍ وفـي خُلـقٍ ❋ ولـم يُدانـوه فـي علـم ولا كـرمِ
كالزهـر فـي تـرفٍ والبـدر فـي شـرفٍ ❋ والبحـر فـي كـرمٍ والدهـر فـي همـم

عليه الصلاة والسلام، كل شخص يؤخذ من قوله ويُرَدّ إلا رسول الله ﷺ. فقيّدوا طريقهم حتى يرضى عنه الله، وحتى يقبله الله بالكتاب والسُنّة، قال الفضيل بن عياض: لا يقبل الله العمل إلا بالإخلاص والصواب؛ الإخلاص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون على سنّة رسول الله ﷺ.

يروي علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ طرَقَهُ وفاطمةَ بنتَ النبيّ؛ ليلةً فقال: «**ألا تُصلِّيانِ؟**» فقلتُ: يا رسولَ الله أنفُسنا بيدِ الله، فإذا شاءَ أن يَبْعثَنا بَعثَنا. فانصرَف حينَ قلتُ ذلك ولم يَرجِعْ إليَّ شيئًا، ثمَّ سمعتُهُ وهوَ مُوَلٍّ يضرِبُ فخذَهُ وهوَ يقول: ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف، من آية: ٥٤]؛ استدل بالآية في خارج سياقها، سيدنا رسول الله ﷺ يعلمنا هذا، ولذلك استدل العلماء على القياس بقوله تعالى: ﴿ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [الحشر، من آية: ٢] بينما هذه الآية جاءت في قضايا أن المسلمين سيهزمون أعداءهم.

﴿ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة، من آية: ١٩٥] هذه الآية معناها لا تقتلوا أنفسكم أم جاءت في الإنفاق؟ جاءت في الإنفاق، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦] استدل بها أهل السُنّة على خلق أفعال العباد؛ رغم أنها جاءت مع سيدنا إبراهيم في الأصنام وهكذا، فيجوز الاستدلال في خارج السياق لأنه كلام ربنا، ولكن هو ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ [الزمر، من آية: ٦٧].

الذين يريدون تقييد الكتاب بالسياق يريدون أن يجعلوا القرآن محصورًا تنتهي عجائبه! «**إِنَّ هَـذَا الْقُرآنَ مَأْدَبَةُ اللهِ فَاقْبَلوا مِنْ مَأْدَبَتِهِ ما اسْتَطَعْتُمْ، إِنّ هَـذَا الْقُرآنَ**

حَبْلُ اللهِ، وَالنُّورُ الْمُبِينُ، وَالشِّفاءُ النّافِعُ، عِصْمَةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ وَنَجاةٌ لِمَنْ تَبِعَهُ، لا يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبُ، وَلا يَعْوَجُّ فَيَقُومُ، وَلا تَنْقَضِي عَجائِبُهُ، وَلا يَخْلَقُ مِنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ»(1)، هذا هو الفرق بين العلماء وبين الجهلاء ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال، من آية: ٢٣] وتنطبق على كل شيء من ضمنها هذه؛ لأنه كلام رب العالمين وليس من عند بشر، كلام متين ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت، من آية: ٤٢] ولذلك استدلوا بكل شيء فيه ما دام ليس مخالفًا للأصول: أن الله واحد وأنه أرسل الرسل وأنزل الكتب وهناك يوم آخر سنعود فيه إلى ربنا للحساب والثواب والعقاب، وأنه أمرنا بعبادته وبعمارة الدنيا... إلى آخره، هذه الأصول لا أحد يخالفها. ممنوع.

قال أحدهم: إن القرآن يدعو إلى التثليث؛ لأن الله تعالى -انظر أنطقه الله فاعترف أنه كلام الله- يقول: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾.

فماذا تقول له؟! ستضحك وكفى!!!!

أفبعد أن قال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

هناك ست عشرة صفة في آخر سورة الحشر، وقبل ذلك وبعد ذلك من الأسماء والصفات العدد الكثير!! فهل هذا سماع؟!!! من أين أتى هذا السماع؟ ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ لو علم الله خيرًا في أبي لهب لأسمعه كلام رسول الله ﷺ، هو سمعه بأذنه، لكنه لم ير رسول الله. لم يكن ضريرًا!! هو رأى فيه يتيم أبي طالب، رأى جسمًا كان قد تربَّى عند أبي طالب، لو كان رأى فيه النبوة لآمن، ولكن توعده الله وأنزل فيه قرآنًا نتلوه إلى يوم الدين في المحاريب،

---

(١) سبق تخريجه في باب الاعتصام، ص: ١٥١.

سورة (المسد)، وذكر اسمه، لم يذكر اسم النمرود ولا اسم فرعون مصر، وذكر اسم أبي لهب، يعني تشديد في الوعيد تشريفًا لرسول الله ﷺ.

ومع ذلك يخفف الله عنه العذاب لأنه فرح بالنبي ﷺ لما سمع بمولده فأعتق ثويبة[1]. أفلما سررنا نحن بمقدمه الشريف، ألا يفرح بنا ربنا!!

هذه هي: أغلقوا على أنفسهم؛ ليس هناك أنوار؛ ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال، من آية: ٢٣] لكانوا سمعوا الكلام وفهموه، «**نكتة السماع حقيقة الانتباه**»، يحدث له انتباه، يقول: ربنا على شيء قدير، لا يكون في كونه إلا ما أراد، نسلم ونرضى،؛ لما أصابني بالمنن فمن فضله؛ وإذا أصابني بالمحن يريد أن يرقيني، فيبدأ يرى الأشياء على حقيقتها، انْتَبَهَ، أي بدأ يفهم، أو بدأ يسمع.

«**وهو علىٰ ثلاث درجات: الدرجة الأولىٰ: سماع العامة: وهو ثلاثة أشياء:**

١- **إجابة زجر الوعيد دَعًّا**»: إذا خطرت له المعاصي يسمع تقبيحًا لها، فيحصل له نفرة؛ اتضح له أن المعصية مغلفة بالشهوة وأصلها القبح فيدفعها وينزجر.

٢- «**وإجابة دعوة الوعد جهدًا**»: يحب الصلاة وقيام الليل والذكر وجهاد النفس... إلخ، ويبدأ هذا الحب يسيطر عليه ويشعر به وأنه يعمل أشياء طيبة، وكلما يصلي، كلما يصوم، حتى لو تصدق بكل ما في جيبه فاضطر أن يسير على قدميه ولم يجد ما يركب به، ورغم إنه يعيش في الجهد وفي المشقة إلا أنه يشعر بلذة

(١) قَالَ عُرْوَةُ بن الزُّبَيْر: وَثُوَيْبَةُ مَوْلَاةٌ لِأَبِي لَهَبٍ، كَانَ أَبُو لَهَبٍ أَعْتَقَهَا فَأَرْضَعَتِ النَّبِيَّ ﷺ، فَلَمَّا مَاتَ أَبُو لَهَبٍ أُرِيَهُ بَعْضُ أَهْلِهِ بِشَرِّ حِيبَةٍ، قَالَ لَهُ: مَاذَا لَقِيتَ؟ قَالَ أَبُو لَهَبٍ: لَمْ أَلْقَ بَعْدَكُمْ، غَيْرَ أَنِّي سُقِيتُ فِي هَذِهِ بِعَتَاقَتِي ثُوَيْبَةَ. أخرجه البخاري: ١٩٦١/٥، برقم (٤٨١٣) كتاب النكاح. قال البيهقي: ما ورد من بطلان الخير للكفار فمعناه أنهم لا يكون لهم التخلص من النار ولا دخول الجنة ويجوز أن يخفف عنهم من العذاب الذي يستوجبونه على ما ارتكبوه من الجرائم سوىٰ الكفر بما عملوه من الخيرات. انظر: فتح الباري: ١٤٥/٩.

ويحب المشقة، يحدث له انكشاف حقيقة، الانتباه؛ حيث إنه بدأ ينتبه لمعانٍ لم يكن منتبهًا إليها من قبل.

٣- «**وبلوغ مشاهدة المنة استبصارًا**»: ويبدأ يرى الحقيقة، وأن كل ما نزل به فهو خير ونعمة والدنيا قد خرجت من قلبه؛ فله في كل محنة منحة.

«**والدرجة الثانية: سماع الخاصة ثلاثة أشياء:**

١- **شهود المقصود في كل رمز**»: يسمع عصفورة يقول: ربنا أسمعني العصفورة لكي يقول لي كن رقيقًا مع الخلق ولا تكن عنيفًا، كن رحيمًا ولا تكن قاسيًا، وهكذا، يسمع كل شيء، يجعلها كرسائل مبعوثة إليه من ربه. سيدنا رسول الله ﷺ يعلمنا أن نتأمل في الكائنات، وافهموا، «**جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا، وَأَنْزَلَ فِي الأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الْخَلْقُ، حَتَّى تَرْفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ**»[1] يعني يريد سيدنا رسول الله ﷺ أن يعلمنا من كل شيء، ويريد أن نتفاعل مع الكون كله؛ فكل شيء يوصل إلى الله ﷻ.

٢- **والوقوف على الغاية في كل حس**: يجب أن يسأل الإنسان نفسه في كل شيء يمر به: ما المقصد؟ وما الغاية التي يريدها الله أن نعيها في هذا الأمر؟ ويبدأ يتدرب أن يرى الله ﷻ في كل شيء.

وفي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ * تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ

٣- **والخلاص من التلذذ بالتفرق**: يشعر بأنه مجتمع مع الله وأنه لا يغيب عنه، ويبدأ يتخلص الإنسان يتلذذ بأنه يكون مع نفسه ولا أحد مطلع عليه، فتذهب هذه

(١) متفق عليه، البخاري: ٥/٢٣٧٤، برقم (٦١٠٤)، ومسلم: ٤/٢١٠٨، برقم (٢٧٥٢).

الحالة عنه ويحل محلها أنه مع الله دائمًا، وهذا أحلى من أن تكون مع نفسك لا أحد يراك من البشر، لكن بعد ما تخلصت من الرعونات وتلذذت بالمجهودات يأتي لك شعور بأن الله معي أحلى؛ الآخر مستحٍ من الله فنسيه، أما هذا فهو متذكره دائمًا لأنه حبيبه، ومراد المحبوب مطلوب.

«سماع خاصة الخاصة:

١- **سماع يغسل العلل عن الكشف»**: هم في الحضرة الإلهية فيزول عنهم كل حجاب؛ لا صلاة ولا صيام، ليس معنى هذا أنهم يتركون هذه الأشياء، ولكن لا صلاة ولا صيام تكون حجابًا، فسيدنا رسول الله ﷺ قال: «**يَا عَائِشَةُ أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**»[١] يفعل فعل العبد الرباني، الله يتجلى فيه للكائنات، وهذا إذا رأيته تذكرت الله.

٢- **«ويصل الأبد إلى الأزل»**: كل شيء استوى عنده وعرف، تمت الدائرة؛ فهو قد سار فيها إلى أن وصل للبداية فأصبح شخصًا عاديًا! يتألم ويتأوه فيشرب الدواء لأن الله أشعره بما يستوجب أخذ هذا فنزولًا على إرادة الله فيه يأخذ الدواء، لا من أجل اعتقاده أن فيه الشفاء بل من أجل تنفيذ مراد الله.

لماذا أصابني بما أصابني، لكي أتألم، وأتداوى، وأوصل ما معي من رزق الصيدلي إليه، أما الشفاء، فبيد الله وحده، إرادة ربانية، وأرزاق مسوقة، وأنا موافق ومتلذذ، ولا أتبرم من هذا الأمر، ترى هذا الشخص تجده شخصًا عاديًا من العوام وهو من أهل الله الكبار؛ فالذي أمر بأخذ الدواء هو الله، والذي بيده الشفاء هو الله.

تراه أنت من العوام، وهو من أهل الله الكبار.

---

(١) سبق تخريجه، ص: ٨٣.

٣- «**ويرُدُّ النهايات إلى الأول**»: يعني اكتملت الدائرة، وصل إلى النقطة التي منها بدأ، وهذا الذي قاله أبو اليزيد البسطامي: «خُضنا بحرًا وقف الأنبياء على شاطئه» قالوا: أتقول أنك أعلى من الأنبياء؟! قال لهم: أنتم لم تنتبهوا فالأنبياء ذهبوا وجاءوا، أما العوام فلا ذهبوا ولا جاءوا فهم مثل الأنبياء في الوقوف على الشاطئ، وهذا خاض قليلًا في بحر وقف الأنبياء على ساحله بعد الذهاب والعودة.

الخِتَام

الخاتمة

أخذنا نسير في منازل السائرين بين إياك نعبد وإياك نستعين، فهذا هو طريق الله يبدأ بالعبادة وينتهي بالاستعانة، وطريق الله ﷻ مع مُدة الحياة؛ فليس له بداية ونهاية في هذه الحياة الدنيا بحيث أن الإنسان يصل إلى مرتبة لا تكليف بعدها! بل إنه يعبد ربه حتى يأتيه اليقين، واليقين هو الموت، فطريق الله ﷻ في بدايته وفي نهايته على مُدة حياة الإنسان؛ فإن النبي ﷺ علّمنا -وهو أسوتنا الحسنة- أنه يعبد ربه ﷻ مُدة حياته، فكان كلما رقّاه ربه في مدارج العبودية وعلاّه وفتح عليه فإنه يزداد عبادةً وقياما إلى أن تتورم قدماه ويقول: «**يَا عَائِشَةُ أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**»[1]، غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وليس له ذنب على الحقيقة- وإنما قربات الأبرار سيئات المقربين- لا قبل النبوة ولا بعدها لأنه كان ﷺ معصومًا وكان مختارًا من ربه وكان من المصطَفين الأخيار، بل هو سيدهم وسيد الأنبياء والمرسلين، تعجز الكلمات عن وصف حقيقته فلا يعلم كُنه حقيقته ﷺ إلا من خلقه، يقول البوصيري في بردته:

دَعْ مَـا ادَّعَتْـهُ النَّـصَارَىٰ فِـي نَبِـيِّهِمُ * وَاحْكُمْ بِمَا شِئْتَ مَدْحًا فِيهِ وَاحْتَكِمِ
وَانْسُبْ إِلَىٰ ذَاتِهِ مَا شِئْتَ مِن شَرَفٍ * وَانْسُب إِلَى قَدْرِهِ مَا شِئْتَ مِن عِظَمِ
فَـإِنَّ فَـضْلَ رَسُـولِ اللهِ لَـيْسَ لَـهُ * حَـدٌّ فَيُعْـرِبَ عَنْـهُ نَـاطِقٌ بِفَـمِ

يعني: قل ما شئت وامدح ما شئت؛ فإنك لا تصل عشر معشار ما عليه قدره العظيم ﷺ.

---

(١) سبق تخريجه، ص: ٨٢.

قسَّم الطريق في منازل السائرين إلى عشرة أقسام، وقسَّمَ كل قسم إلى عشرة أبواب وجعل هذا الطريق في مائة خطوة وقد تكلمنا على عشر منها:

أول الطريق هو أن تتيقظ وأن تعلمَ حقيقة الدنيا، وأنها إلى فناء، إذا لم تعلم هذا، وأن هذه الدنيا فانية، وأنها كما أنها حادثة لها بداية فإن لها نهاية، إذا لم تعلم هذا فأنت نائم، وإذا لم تعلم أنه لا حول ولا قوة إلا بالله، وأنه لا يكون في هذا الكون إلا ما أراد الله فأنت ما زلت في غفلتك وغفوتك، والنائم لا يُخاطَب لأنك لو خاطبته لا يسمع فلا يستجيب ولا يتحرك حيث إنه غافل، هناك حجاب بينك وبينه وهو النوم؛ إذن فلابد أولًا من اليقظة حتى تسمع وتعلم أن كل الذي حولنا هذا إنما هو من إخراج ربنا؛ فهو ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى: ٢-٣]، وهو الذي بيده ملكوت كل شيء، إذا عرفت ذلك عرفت أنه لا حول ولا قوة إلا به، إذا عرفت ذلك فإنك لا تسأل البشر بل تسأل ربك، إذا عرفت ذلك تعلم أن الله قد خلق السبب والمسبَّب معًا، وما هي إلا أشياء يُقَدِّرها ربنا ويجريها ﷻ، هذا هو أساس المسألة، **اليقظة** أول شيء.

ثم بعد ذلك تأتي **التوبة**؛ فلابد عليك من أن تنخلع من ذنوبك ومن دائرة المعصية إلى دائرة الطاعة، ومن دائرة الكسل إلى دائرة الهمة، وأن تتوب إلى الله تعالى إلى أن تصل وتترقى في التوبة إلى درجة التوبة من السوى، أي: ما سوى الله، فإذا تُبتَ عن المعصية والتزمت بالطاعة فهذه أمور سهلة، ولكن المطلوب الأكبر أن تتخلص من الدنيا وتخرجها من قلبك وتطلقها ثلاثة باتة لا رجعة فيها أو تلاعنها حتى تَحرُم عليك أبدًا فتخرج من قلبك، وكان من دعاء الصالحين «اللهم اجعل الدنيا في أيدينا ولا تجعلها في قلوبنا».

كيف التوبة عن السوى؟ التوبة عن السوى تأتي إذا لم تفرح بالموجود ولا تحزن على المفقود، فيستوي عندك العطاء والمنع، فبهذا نصل إلى مرتبة التخلص من السوى، فتصل إلى درجة الرضا والتسليم، فإذا رضيت بقدر الله وأمره،

وسلَّمتَ له ﷺ وتركت له الأمر يختار لك،؛ فإنك قد تظن شيئًا لك في الدنيا أنه خيرٌ وهو من قبيل الشر، ويُرَتِّب الله لك شيئًا آخر يخرجك به من ظلمات الدنيا إلى نور الآخرة، ومن ضيقها إلى سَعَة الله،؛ فالله هو الواسع لكن أكثر الناس لا يعلمون، كما قيل في الأثر: «لو علمتم الغيب لاخترتم الواقع» ، فالرضا والتسليم ينتُج من التوبة عن السوى.

وبعد قضية التوبة أتت المحاسبة «**حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا**»[(١)]، يقول رسول الله ﷺ: «**يُبْصِرُ أَحَدُكُمُ القَذَاةَ في عَيْنِ أَخِيهِ، ويَنْسَىٰ الجِذْعَ في عَيْنِهِ**»[(٢)]! فلابد على الإنسان أن يبدأ بنفسه في المحاسبة ويُدينها. والنبي ﷺ في أمر التغيير يقول: «**وابْدَأْ بمنْ تَعُولُ**»[(٣)] ابدأ بمن عندك المسئولية عليهم، لكن كثيرًا من الناس يرى القذاة في عين أخيه ويدَع جذع النخلة في عينه! وهذه مصيبة كبرى وبَلية سيحاسب عليها الإنسان في الدنيا والآخرة، ويقول رسول الله ﷺ: «**مَنْ عَيَّرَ أَخَاهُ بِذَنْبٍ لَمْ يَمُتْ حَتَّىٰ يَعْمَلَهُ**»[(٤)] هو أمرنا بالستر فقال: «**وَيْلَكَ يَا هَزَّالُ لَوْ كُنْتَ سَتَرْتَهُ بِثَوْبِكَ كَانَ خَيْرًا لَكَ**»[(٥)] فإذا تكبر الإنسان على أخيه بذنب ارتكبه فإن الله لا يميته حتى يرتكبه؛ فاللهم سَلِّمْ سَلِّمْ، فإذا رأيت هذا في الناس فقل الحمد لله -بينك وبين نفسك وليس في وجه أخيك- الذي عافانا مما ابتلى به كثيرًا من عباده، فإن كثيرًا من عباده قد ابتلي حتى إنه لا يستطيع أن يعود إلى الله ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال، من آية: ٢٤].

---

(١) سبق تخريجه، ص: ١٠٦.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه: ٧٣/١٣، برقم (٥٧٦١).

(٣) متفق عليه، البخاري: ٥١٨/٢، برقم (١٣٦٠)، ومسلم: ٧١٧/٢، برقم (١٠٣٤).

(٤) سبق تخريجه، ص: ٥١.

(٥) أخرجه أبو داود: ٥٣٨/٢، برقم (٤٣٧٧)، وأحمد: ٢١٧/٥، برقم (٢١٩٤٢)، والحاكم: ٤٠٣/٤، برقم (٨٠٨٠) وقال: صحيح الإسناد.

فالمحاسبة تساعد على **الإنابة** وهي الخطوة الرابعة، والإنابة تطبيق للتوبة، فإذا كانت التوبة نظر فالإنابة عمل، وإذا كانت التوبة علم فالإنابة فعل ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ ﴾ [الروم، من آية: ٣١]، والتقوىٰ: الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل، والتقوىٰ في الواقع: أن تُخلي الذنوب كبيرها وصغيرها،

خَلِّ الذُّنوب صغيرها وكبيرها ذاك التُّقىٰ
وَاصْنَع كماشٍ فوقَ أرض الشَّوْكِ يَحْذَرُ مَا يَرَىٰ
لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً إِنَّ الْجِبَالَ مِنَ الْحَصَىٰ

فالإنسان يستهين بصغيرة وصغيرة وصغيرةٍ، وهو لا يشعر، و«**إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً، يَرْفَعُهُ اللهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ**»[1].

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة، من آية: ١٤٣]، يعني عالية المقام.

وبعد الإنابة يأتي **التَفَكُّر** ومعه **التَذَكُّر**، والفرق بينهما أن التفكر هو التشوف إلى المطلوب، والتذكر هو رفع الحجاب عنه والوصول إليه، كالفرق بين التوبة والإنابة، فهذا عمل وهذا علم.

ثم بعد ذلك تكلم عن **الاعتصام** وقال إنه اعتصامٌ بالله، والاعتصامُ بحبل الله يبدأ أولاً بحبل الله ثم يترقى إلى الاعتصام بالله.

ثم **الفرار** إلىٰ الله، و**الرياضة**، حتى يدخل في حال **السماع**، سماع الوارد، ومعنىٰ سماع الوارد أنه قد وصل إلىٰ الباب.

(١) أخرجه البخاري: ٥/٢٣٧٧، برقم (٦١١٣).

فإذا فُتِحَ الباب -فاللهم افتح علينا فتوح العارفين بك- فهو وربه؛ يفتح الله عليه ما شاء بما شاء أنى شاء كيف شاء.

ولذلك فقد انتهى كلامنا عند هذا؛ فإن الإنسان إذا وصل إلى الباب وفُتِحَ له- لا يأخذ منا بل نأخذ منه.

فلابد علينا أن ننتفع بما قد استمعنا إليه وعلمناه ونبدأ فيه؛ فنوقظ أنفسنا من الغفلة وندرك حقيقة الدنيا، ونتوب، ونحاسب أنفسنا، فننيب إليه ﷻ فلا ملجأ منه إلا إليه، ثم بعد ذلك نتفكر، ونتذكر، وعلينا بعد ذلك بالرياضة، وبالفرار، حتى نصل إلى السماع، فإن نحن فعلنا ذلك فنرجو الله أن ينفعنا بما سمعنا، وإن نحن لم نفعل فلا ينفعنا من بعد ذلك من شيء.

هذا الطريق مُقَيَّد بالكتاب والسُنّة، مُقَيَّد بالعلم والعمل ولا يصلح فيه التمني ولا الدعاوي والادعاء، بل هو محض ذكر وتربية وخلوة حتى لو كانت في الجلوة، ذكرٌ يبدأ فيه الإنسان بذكر الله ويُكثِر منه حتى يُعَد من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات، ويترقى فيه.

وأهل الله لهم سبعة أسماء أصول، قالوا: إنها تُلَخِّصُ الأسماء الحسنى الواردة في القرآن، **والأسماء الحسنىٰ** الواردة في القرآن حقيقتها هي تربية الإنسان؛ لأن منها ما هو للتَخلُّق كالرحمن الرحيم الرءوف العفو الغفور، ومنها ما هو للتَعَلُّق كالعظيم الجليل الجبار المتكبر، ومنها ما هو للكمال بعد الجمال والجلال كلفظ الله، فإن الله وحده لا شريك له هو الذي تتعلق به القلوب، وهو محل السؤال، وهو ﷻ مقصود الكل.

الله لفظة شريفة عجيبة تدل بكلها على الذات العَلِيَّة، **الله** هو الذات الواجب الوجود المُستَحِق لجميع المحامد ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى: ٢-٣]، والذي يستحق منا العبادة والخضوع والسجود.

لا أحد يسجد في الأرض الآن لربه إلا المسلم، وهذا من علامات صِحَة هذا الدين، فنحن الذين أسلَمنا وجوهنا لله وخضعنا وخشعنا واستجبنا وأدينا صلاتنا، وفيها كل ما تؤديه الملائكة من عبادة لربها، فالكون يذكر وأنت تذكر، والكون يسجد وأنت تسجد، فأنت متسق مع الكون لربك.

قال أهل الله: إن أسماء الله الحسنى في القرآن وهي مائة وخمسون اسمًا أو تزيد قليلًا، منها ما هو للجمال، ومنها ما هو للجلال، ومنها ما هو للكمال، تتلخص في سبعة، وهي مستقاة من (**لا إله إلا الله**): (**الله**)، (**هو**)، (**لا إله إلا هو**)، (**الحي القَيُّوم**)، (**الحق**)، (**القهار**)، وأن هذه السبعة يلهج بها بادئ الطريق فتساعده كثيرًا على تخطي العقبات وعلى الاشتغال بالذكر؛ حتى يلين قلبه لذكر الله فيذكر حتى من غير لسانه؛ لأن هناك ذكر باللسان وذكر بالجنان وذكر بهما وهو أعلىٰ الذكر.

فالإنسان إذا أراد أن يبدأ مع الله مستفيدًا بتجارب أولياء الله الدالين على الله الذين جعلوا الكتاب والسنة ديدنهم، وجعلوا رسوله ﷺ أسوتهم- فإنهم يرشدونه إلى طريق فيه ذكر كثير.

في القديم -قبل هذا العصر النَكِد الذي نعيش فيه- وكان أهل الله يضعون أرقامًا لكل اسم، يقول لك اذكر «لا إله إلا الله» ألف مرة، أو ثلاثين ألف مرة الله، أو اذكر «الله» سبعين ألف مرة، وهكذا، لكن تغير الأمر من أكثر من مائة عام لما اشتدت الظلمات وتسارع الناس في الدنيا دون الآخرة، قالوا: كنا في القديم نسير في الشارع نجد ثلاثين وليًا، الآن نلتفت في المساجد فنجد ثلاثين شيطانًا.

فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولكن علينا أن نبدأ بأنفسنا فنعيبها.

نعيبُ زماننا والعيب فينا ❊ وما لزمانِنا عَيب سِوانا

قال ﷺ: «**ابْدَأْ بِنَفْسِكَ**»[1]، وتقول في نفسك: أنا القبيح؛ فيجب أن أبدأ بنفسي فأذكر الله؛ قالوا: اقرأ كل اسم مائة ألف مرة، كيف؟

فقالوا: لا تقرأ مائة ألف مرة واحدة، ولكن كل يوم تقرأ ما تيسر ألفين ثلاثة حتى تكمل المائة ألف، ثم تنتقل إلى الاسم الذي بعده. وهكذا، حتى تنتهي من السبعة، الأصول.

جاء الشيخ عبد القادر الجيلاني في القرن السادس الهجري، وأضاف لهم ستة: الواحد، العزيز، المهيمن، الودود، الوهاب، الباسط.

لماذا؟! قال: لأن حال الناس قد تغير حالهم ولم تعد السبعة تكفي. فصارت ثلاثة عشر اسمًا يذكر بها المريد السالك.

إذن أصبح عندنا ما يسمى: الأصول، وهي بمثابة العواميد والأساسات، وما يسمى: الفروع، وهي بمثابة البنيان.

هل يجوز هذا العدد؟

النبي ﷺ قال: «**مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ، حَتَّى يُمْسِي، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلاَّ رَجُلٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْهُ**»[2]، «**من قَالَ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمْسِي: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، مِائَةَ مَرَّةٍ، لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ. إِلاَّ أَحَدٌ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ أَوْ زَادَ عَلَيْهِ**»[3].

---

(١) قال السيوطي: ٨١/١: الحديث فيه قصة ذكرها البخاري دون المتن: ٧٥٣/٢، برقم (٢٠٣٤)، ومسلم: ٦٩٢/٢، برقم (٩٩٧).

(٢) متفق عليه البخاري: ١١٩٨/٣، برقم (٣١١٩)، ومسلم: ٢٠٧١/٤، برقم (٢٦٩١).

(٣) أخرجه مسلم :٢٠٧١/٤، برقم (٢٦٩٢)

فأصبحت مفتوحة، لا حصر فيها.

هل يجوز أن يذكر بأسماء الله الحسنىٰ؟

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف، من آية: ١٨٠].

هل يجوز أن نذكر بالاسم المفرد: الله؟

﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام، من آية: ٩١].

روىٰ مسلم عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَىٰ أَحَدٍ يَقُولُ: اللهُ اللهُ**»[1]، هكذا يقول رسول الله ﷺ، إذن كان يقال في الأرض: **الله الله**.

هذا هو الكتاب والسنة؛ إذن علينا أن نفهم وأن نعي؛ لأن كثيرًا من الناس -والعياذ بالله- يتمسحون بسنة رسول الله ﷺ لا على طريقة السلف الصالح ويصدون الناس عن الذكر، والقرآن ثلاثة أرباعه يأمر بالذكر حتىٰ سُمِّيَ القرآن ذكرًا، ولكن ماذا نصنع في قلوب قد قست وأناس قد أغلقوا علىٰ أنفسهم طريقًا فتحه الله لهم؟!

الْهَجُوا بالذكر في كل مكان فإن الذكر هو بداية الطريق والعمل، ثم بعد ذلك إذا ما انتهينا من هذا ذكرنا بأسماء الله الحسنى الواردة في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن سيدنا رسول الله ﷺ فيما أخرجه الترمذي بتلك الرواية المشهورة التي نتلوها ويحفظها كثيرٌ منا.

ثم بعد ذلك نسير على اسم من الأسماء نجد فيه قلبنا، فكل واحد يجد قلبه في

---

(١) أخرجه مسلم: ١٣١/١، برقم (١٤٨). قال الإمام النووي في شرح الحديث: «على أحد يقول: الله. الله» هو برفع اسم الله تعالىٰ، وقد يغلط فيه بعض الناس فلا يرفعه. واعلم أن الروايات كلها متفقة علىٰ تكرير اسم الله تعالىٰ في الروايتين، وهكذا هو في جميع الأصول. راجع مسلم بشرح النووي: ١٤٦/٢. ط دار الفكر.

اسم من الأسماء يستمر عليه إما من الأصول أو الفروع أو الأسماء الحسنى، ولا يزيد عن خمسة آلاف في اليوم حتى يذكر متأنيًا.

ويدخل بعد ذلك في التربية فيضع نفسه وشهواته تحت قدمه، وكلما أمرته نفسه بشيء أبى وتأبى عليها ورفض وخالفها ويجتهد حتى يجهد نفسه، فإنه يجد لذة في قلبه لو عرفها الملوك لقاتلونا عليها.

وأساس كل ذلك الديمومة والدوام؛ «فكان عمل سيدنا رسول الله ﷺ ديمة»[١]، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ: أَيُّ الأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ؟ قَالَ: «**أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ**»[٢] فإن انقطعت فلا تيأس، وابدأ مرة ثانية وثالثة وعاشرة ومائة إلى أن تصل إلى الديمومة.

لا تيأس، استحضر رسول الله ﷺ معك وعِش معه في هذه الدنيا؛ فإنه بابك إلىٰ الله، وانسدت كل الطرق إلىٰ الله إلا من قِبَلِه ﷺ، عِش معه بحب، عِش معه بتعظيم وإجلال؛ فإنه هو الواسطة التي ارتضاها الله ﷻ أن تكون بينك وبينه، ليست واسطة عبادة إلا من قبيل الوحي، فالله لا يكلمك إلا عن طريق نبيه ﷺ ﴿ **وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ** ﴾ [الشورىٰ، من آية: ٥١]، ولكن من غير هذه الواسطة لا تكون، إنما هو وسيلتك إلىٰ ربك، وليست هناك وسيلة أخرىٰ إلىٰ الله ﴿ **وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ** ﴾ [المائدة، من آية: ٣٥]، فوسيلتنا رسول الله ﷺ نَتّبع سُنَّته ونسير على نهجه ونتعلم تعليمه ونفعل فعله؛ فيرضىٰ الله ﷻ قطعًا من غير تردد ولا شك ولا رِيَب.

---

(١) «كَانَ عَمَلُهُ ﷺ دِيمَةً» متفق عليه، البخاري: ٧٠١/٢، برقم (١٨٨٦)، ومسلم: ٥٤١/١، برقم (٧٨٣) عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وأرضاها.

(٢) متفق عليه، البخاري: ٢٣٧٣/٥، برقم (٦١٠٠)، ومسلم: ٥٤١/١، برقم (٧٨٣).

سيد الكائنات، أحلىٰ عباد الله، أجمل الخلق أجمعين خُلُقًا وخَلْقًا ظاهرًا وباطنًا، سيدنا رسول الله ﷺ كنز، وفقك الله من غير حول منك ولا قوة أن تكون من أتباعه، من غير بحث ولا مجهود، فكيف تُهدِر كل ذلك؟! اتق الله وعُد.

فإن انتهيت من التربية - وعلامتها: أن تضع نفسك تحت قدمك؛ فإنك تدخل الخلوة ولا تكون إلا بإذن الشيخ، فإذا فقدت الشيخ فليس هناك خلوة، وعليك بأن تصلي على النبي ﷺ دائمًا وأبدًا حتى يوفقك الله ﷻ للشيخ المرشد ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

فالمعية هنا تستوجب أن تكون مع مرشد يرشدك إلى الله، وفي صحبةٍ تدلك عليه ﷻ، والنبي ﷺ قد تحنَّثَ الليالي ذوات العدد في غار حراء.

وإذا فقدت المرشد طلبت «هداية ربي عند فقد المربي» وهذا يتأتي بالصلاة على النبي ﷺ في اليوم لا أقل من ألف مرة حتى تعيش معه ﷺ لعله أن يكون مُرشِدَك، ومن كان رسول الله ﷺ مُرشِده فقد وصل إلى الغاية العليا.

فاللهم يا ربنا صَلِّ على سيدنا محمد في الأولين وصَلِّ عليه في الآخرين وصَلِّ عليه في العالمين وسلم تسليمًا كثيرًا، والحمد لله أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا

﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢].

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة الناشر	٧
ظاهرة المختصرات	٩
القسم الأول (الرافض للظاهرة)	٩
القسم الثاني (المؤيد للظاهرة)	١٢
ترجمة مختصرة لصاحب كتاب منازل السائرين رضي الله عنه	١٥
المقدمة	٢٥
الإمام العلامة نور الدين علي جمعة (سيرة ومسيرة)	٣١
باب اليقظة	٣٥
باب التوبة	٥٧
باب المحاسبة	٨٥
باب الإنابة	١٠١
باب التفكر	١١٧
باب التذكر	١٣١
باب الاعتصام	١٤٥
باب الفرار	١٦١
باب الرياضة	١٧٧
باب السماع	١٩١
الخِتَام	٢٠٧
فهرس المحتويات	٢١٩

من إصداراتنا

كـتـب:

د. علي جمعة:

* الكامن في الحضارة الإسلامية.
* الطريق إلى الله.
* خطب الجمعة (سلسلة الوحي والقرآن).
* خطب الجمعة (التربية والسلوك).
* تيسير النهج في شرح مناسك الحج.
* فتاوى القرن الجديد.
* خطب الجمعة (سلسلة النبي ﷺ).
* المنح الإلهية في شرح الحِكَم العطائية.

الشيخ/ أحمد صالح:

* مفتاح السِّير من حياة خير البشر ﷺ.

المستشار/ مصطفى سعفان:

* الورقات في الإصلاح.
* ملامح التجديد.

د. مصطفى البدوي:

* لطائف الإشارات في أسرار المآذن والمنارات.
* علامات آخر الزمان بين العولمة والإرهاب.

الشيخ/ حسنين مخلوف:

* شرح أسماء الله الحسنى والآيات الكريمة الواردة فيها.

اسطـوانات:

* سلسلة الحكم العطائية.
* سلسلة الخطب.
* نفحات رمضانية (cd).
* سلسلة إحياء علوم الدين.
* محاضرة الإفتاء بين الفقه والواقع.
* سلسلة محاضرات منازل السائرين.

كاســـــــيت:

د. علي جمعة:

* سلسلة محاضرات منازل السائرين. (٨ شرائط).
* خطب: ١- غارات تبشيرية. ٢- جاءت اللجنة وذهبت. ٣- قرآن الحق وفرقان الباطل. ٤ - إنا كفيناك المستهزئين. ٥- ماذا بعد رمضان. ٦- جاءت اللجنة وذهبت.

إصدارات البرامج:

د. علي جمعة:

* الحكم العطائية (فيديو).
* نفحات رمضانية (صوت).
* موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين (فيديو).
* النبراس (صوت).
* شرح الزبد (صوت).
* السلسلة النورانية في التربية الربانية. (فيديو).
* منازل السائرين (صوت).
* فقه السيرة (فيديو).
* الخطاب الديني (فيديو).
* القيم (فيديو).
* الإدارة في الإسلام (صوت).
* السنن الإلهية في القرآن (فيديو)
* عوائق الوحدة الإسلامية (فيديو).
* أصول الفقه الحضاري (فيديو).
* الإفتاء بين الفقه والواقع (فيديو).
* المدخل إلى التصوف (فيديو).
* التصوف وتحديات العصر (فيديو).
* أسماء الله الحسنى (صوت).
* رسول الله يسأل رسول الله (فيديو).
* محطات للتذكرة (فيديو).

محاضـــــــرات:

د. علي جمعة:

١- الكامن في الحضارة الإسلامية.

٢- الإفتاء بين الفقه والواقع.

www.alimamalallama.com

فضيلة الإمام العلامة
علي جمعة

هذا الكتاب

قسم فيه الشيخ الهروي رحمه الله تعالى.الطريق إلى الله تعالى إلى عشر مراحل ، وكل مرحلة من هذه المراحـل مقسمة إلى عشـرة مقامات ، وفي كل مقام من هذه المقامات مفصلة إلى خطوات تبين سبيـل الترقي من معنى إلى معنى ومن فهم إلى فهم حتى يصل العبد إلى مولاه جل وعلا .

وقد قام الإمام العلامة /على جمعة بشرح قسم البدايات بمراحله وخطواته شرحا سهلا مبسطا يصل إلى قلوب العامة والخاصة فيستقى كل واحد منهم مشربه .

نسأل الله عز وجل أن يتم به كمال النفع وتيسير الفهم والقبول .

الناشر

الوابل الصيب للإنتاج والتوزيع والنشر
تراثنا ... أمانة في أعناقنا
٧٠٤٧ شارع ١٧ - المقطم - القاهرة - مصر
تليفون : ‎+٢٠٢-٢٥٠٧٦١٤٥ / +٢٠٢-٢٥٠٨٧٣٨٣+
‎+٢٠٢-٠١٨١٧٥٥٥٦٦ / +٢٠٢-٢٥٠٥٧٨٣٠+
E-mail : info@alwabell.com
www.alwabell.com
www.alimamalallama.com